لَمَحَاتٌ عِلْمِيَّةٌ وَقُطُوفٌ تَفْسِيرِيَّةٌ

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالميــة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

لَمَحَاتٌ عِلْمِيَّـــةٌ وَقُطُوفٌ تَفْسِيرِيَّةٌ

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالميـــة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

المُقَدِّمَة

لا خلاف في المنهج بين مفسري اليوم للآيات الكونية ومفسري الأمس؛ سوى تَجَلِّي بعض خفايا الخليقة بعد اكتشاف المنظار والمجهر وتطور وسائل الرصد، لتسطع البينة على أن هذا القرآن هو الحق، ولو كان مُفَسِّرِي الأمس مُعَاصِرِين لَسَارَعُوا إلى تفسير الآيات الكونية بالحقائق العلمية، فقد فاضت كتبهم ومن سار على دربهم بوجوه من الإعجاز في القرآن الكريم.

قَالَ الْفَخر الرازي: ""كَانَ عمر بن الحسام يقْرَأ كتاب المجسطي على عمر الْأَبْهَرِيّ فَقَالَ لَهما بعض الْفُقَهَاء يَوْمًا: مَا الَّذِي تقرأونه؟ فَقَالَ الْأَبْهَرِيّ أفسر قَوْله تَعَالَى {أفلم ينْظرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقهم كَيفَ بنيناها} فَأَنا أفسر كَيْفيَّة بنائها، وَلَقَد صدق الْأَبْهَرِيّ فِيمَا قَالَ؛ فَإِن كل من كَانَ أَكثر توغلا فِي بحار الْمَخْلُوقَات كَانَ أَكثر علمًا بِجلَال الله تَعَالَى وعظمته""[1]، والمجسطي هذا كتاب قديم في الفلك والرياضيات ألفه بطليموس حوالي عام ١٤٨م في الاسكندرية، وترجمه إلى العربية حنين بن إسحاق العبادي في عهد المأمون حوالي عام ٨٢٧م[2]، فما بالك بالمجلدات اليوم المزدانة بمفاخر الكشوف ومآثر العلوم!.

وتأتي الملامح العلمية بعفوية وتلطف لا يلفت عن غرض الإيمان، ولا مجال لاستنباط وجه علمي بمعزل عن تفهم بديع أساليب البيان، والخشية من تغير الحقائق العلمية مع الزمن حرص محمود؛ لكن الحقائق ثوابت لا تتغير مع الزمن كظلمة البحر العميق، والقول بأن الاجتهاد قد يصيب وقد يخيب صحيح؛ ولكن حرص المتضلعين بعلوم اللغة والشريعة والطبيعة كفيل بالتصويب.

والتفسير بالعلوم يُوَضِّح ما انتظرته الأيام ليتجلى ويسطع ويتحقق وعد جازم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص:٨٧و٨٨، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٤١فصلت:٥٣، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٢٧النمل:٩٣، ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٦الأنعام:٦٦و٦٧، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠يونس:٣٩، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ٣٨ص:٨٧و٨٨.

د. محمد دودح

[1] فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (١٤\ ١٥٤).

[2] موسوعة ويكيبيديا والشبكة الدولية.

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾
٧٩النازعات:٢٧-٣٣.

Paragraph الفَقْرَة

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ. فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى. يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾
٧٩النازعات:٢٧-٣٥.

keywords كَلِمَات إِرْشَادِيَّة

﴿السَّمَاءُ﴾، ﴿بَنَاهَا﴾، ﴿سَمْكَهَا﴾، ﴿سَوَّاهَا﴾، ﴿أَغْطَشَ﴾، ﴿لَيْلَهَا﴾، ﴿ضُحَاهَا﴾، ﴿دَحَاهَا﴾، ﴿مَرْعَاهَا﴾، ﴿أَرْسَاهَا﴾.

Translation تَرْجَمَة (تَفْسِيرِيَّة)

Are you (humans) **difficult to create; or the** (tremendous) **heaven that He** (Allah) **has built? HE has expanded its thickness high; then He has perfectly constructed it** (in order; no chaos)**, and HE has made its darkness** (like earth globe night) **darker** (with its expansion)**, and He brought out its** (sun-like stars light of) **forenoon** (of inhabited earth-like planets)**. After that; He arranged the** (nebulous) **earth** (like what ostrich do to prepare earth to put an egg for life to evolve)**; He** (has structured it global in layers; as He) **brought out from the inside of which its** (light matters that finally made) **water and pasturage, subsequently HE made the** (floated thin) **mountains; thick** (to make the earth crust plates stable)**. All this was intended for you, and** (even) **for your cattle** (that you benefit)**.**

لمَحَات بَيَانِيَّة وعِلْمِيَّة

Eloquent & Scientific Hints

(١) بدء الخلق

في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ٧٩النازعات:٢٧-٣٣؛ بيان يتعلق بترتيب أحداث خلق الكون، والمُقابلة بين شدة السماء وضآلة الإنسان؛ تُطلق معنى (السَّمَاءُ) لتعني الكون كله.

وتشبيه الكون في معرض الشدة ببناء واحد؛ يعني وجود قوى تربط كل الأجرام، ويتضمن التنويه إلى السعة الهائلة، وورود لفظ (السَّمَاءُ) بالإفراد يتفق مع حالة تفرد Singularity؛ قبل أن تُوجد عناقيد النُّجوم وتتشكل إلى سماوات طباق، والإجمال: (السَّمَاءُ بَنَاهَا)؛ تبعه التفصيل: (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)، والأفعال كلها بالماضي؛ فتعني أن التوسع وزيادة السماكة كان حين النشأة تمهيدًا للتسوية والإكمال، وبانقسام متوالي للسُدُم تشكلت كل الطبقات.

وكلمة (السَّمَاءِ) هنا بالإفراد تعنى الكون كله باعتبار توحيد الابتداء كفضاء لم تميزه بعد عناقيد الأجرام سماوات؛ مادة خام واحدة صنع منها القدير كل شيء، وتوحدت فيها جميع القوى والمواد فيما يُسمى بالتوحيد الأعظم لكل شيء: Super-Unification of Everything؛ وتسمى القوة الأعظم Super Force، كان لإفراد لفظ (السَّمَاءِ) في الآية الكريمة إذن مغزى عميق؛ حيث وافق إفرادها مبدأ توحيد كل شيء في الأصل، قال طنطاوي جوهري: "(يعني) هذا العالم كله أصله مادة واحدة هي الأصل لهذه الموجودات ومنها تكونت المادة والكهرباء والمغناطيسية والحرارة والضوء، فهذه كلها صفات وتنوعات في المادة الأساس.. (وقد) خلق الله العالم من مادة واحدة ليستدلوا على وحدانيته وقدرته"[٣].

[٣] طنطاوي جوهري؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر؛ ١٣٥١هـ (١٤٦\١).

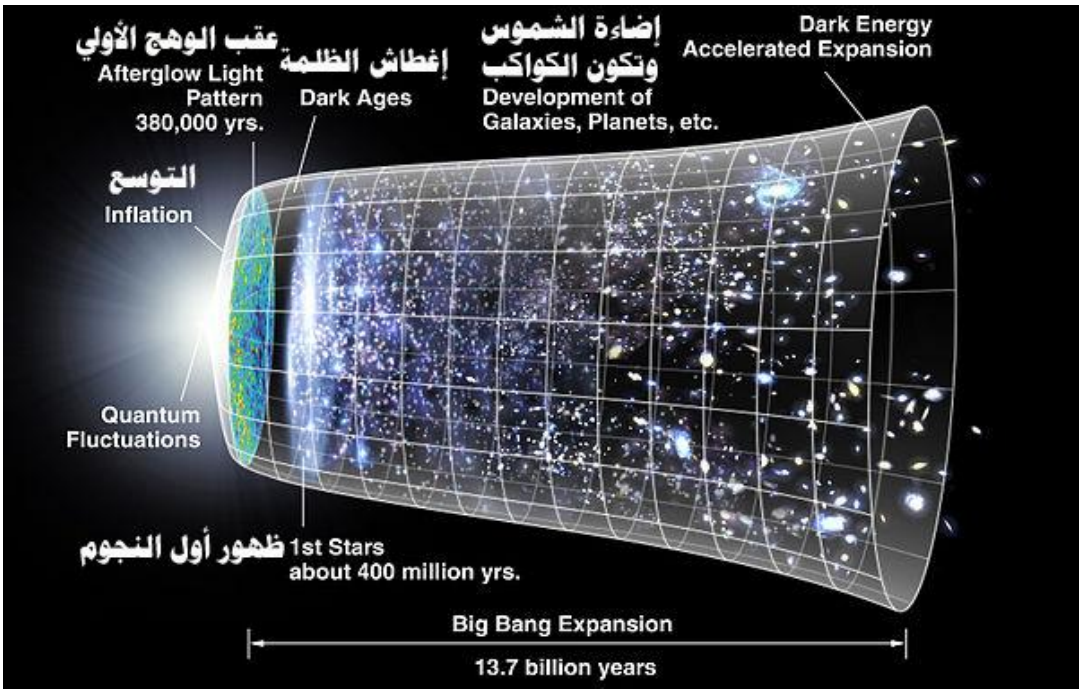

ونسبة الليل للسماء تشبيه بليل الأرض بجامع الظُّلمة؛ ولفظ (أَغْطَشَ) يُوافق سطوع شديد زال مع التوسع فاشتدت ظلمة الكون، وكلمة (ضُحَاهَا) منسوبة للسماء؛ فهي تشمل إشراق الشمس وكل عناقيد النجوم، والضُحى مبدأ النشاط اليومي للإنسان؛ وينجم عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس، ففيه تلميح لكثرة أشباه مأهولة كأرضنا في الكون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ ٢٣المؤمنون:١٧؛ يتفق مع أن الفضاء يُمكن تقسيمه إلى آفاق وفق تجمعات الأجرام الفلكية التي تسبح فيها وتميزها: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ٨٥البروج:١، وكل حشد في حشد أكبر منه وكأن الحشود بناء واحد مُتعدد الطوابق شديد الترابط: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ ٧٨النبأ:١٢، وليست اللبنات إذن من عناقيد النجوم في أفق واحد كما يتراءى للعين؛ وإنما طباق بتسلسل هرمي Hierarchy مُتراكب Superposed مُتداخل Overlapped ينطق بأن للكون ابتداء، وأن تطوره منظوم وفق خطة Plan وتصميم Design مقصود منذ الابتداء؛ شَيَّدَ بناءً مهيبًا هندسته مُذهلة ومواقع لبناته من عناقيد النجوم على أبعاد تَفُوق الخيال!.

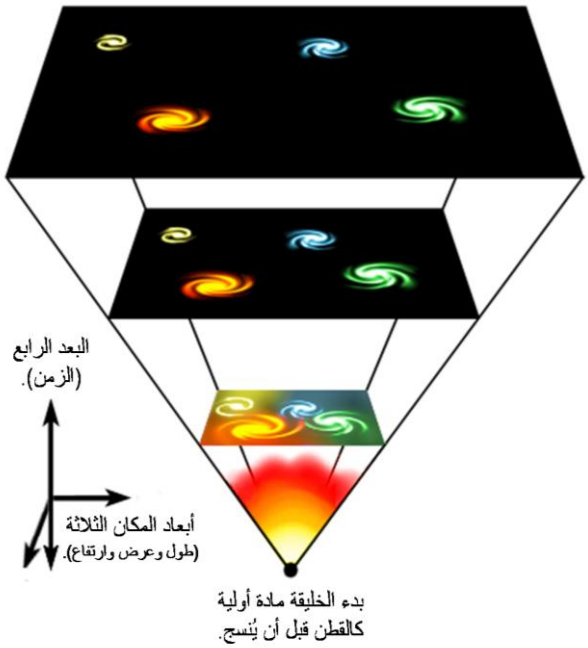

وإذا تتبعنا الغُصن المُثمر بالذكاء في الأرض والمُمَثَّل بالنظام الشمسي أو المجموعة الكوكبية في الأفق الأدنى نجده أحد امتدادات غصن أكبر يُسمى عنقود النجوم المحلية Local Cluster of Stars، وهو يُكون مع أمثاله في أفق أعلى ما يُسمى بالعنقود العملاق للنجوم Super-Cluster of Stars، وهو أحد لبنات مجرتنا: الطريق اللبني، وهي بدورها ضمن زمرة تربو على ٣٠ مجرة تُسمى العنقود المجري المحلي Local Cluster of Galaxies، وهو بدوره ليس إلا أحد لبنات العنقود العملاق للمجرات Super-Cluster of Galaxies، وقد كان الظن أنه آخر ما يُمكن رصده؛ حتى ثبت أخيرًا أنه يتجمع مع مئات العناقيد العملاقة ليشكل خيط رفيع في مِعْمَار النسيج الكوني Cosmic Weave، وليست الأرض المُفعمة بالحياة سوى ثمرة في شجرة مُترامية الأطراف أغصانها لا تُعد؛ فكم يَعُج إذن هذا الكون بالذكاء!.

ولقد حقق العلم قفزات هائلة لمعرفة طبيعة الكون وتطوره؛ فانتهى إلى التوحيد في البنية والنظام، في عام ١٦٧٦ نجح أولاس رومر Olas Roemer من تقديم أول دليل على أن سرعة الضوء محدودة غير لحظية وإن كانت هائلة، وفي عام ١٦٨٧ توصل إسحاق نيوتن Isaac Newton إلى قوانين حركة الأجسام ومفهوم الجاذبية كقوة واحدة تفسر سقوط تفاحة تجذبها الأرض كما تفسر جذب القمر نحوها فتمنع قوة الطرد المركزي سقوطه لِتَزَايِد سرعته كلما اقترب، وكأن الجاذبية تدفعه للحركة كسقطات متوالية، وبالمثل يجب أن تكون كل الأجرام السماوية كذلك حيث يتبع التابع الجسم المركزي ذي الكتلة الأكبر على بعد يحدده قانون الجاذبية؛ وبهذا توحدت الأرض والسماء وتأسست الفيزياء الكلاسيكية.

وفي عام ١٩٠٥ نشر ألبرت أينشتاين Albert Einstein مفاهيم النسبية الخاصة نافيًا وجود سكون في الكون لتنسب إليه حركة جسم فالكل يتحرك؛ لذا تُنسب حركة الجسم لآخر متحرك، إذن حركة كل الأجسام نسبية Relative، وسرعة الضوء هي الوحيدة المُطلقة Absolute فسُميت بالثابت الكوني للحركة Universal Constant of Motion، وفي عام ١٩١٥ نشر ألبرت أينشتاين نظرية النسبية العامة General Relativity؛ وطرح فيها فكرته الجريئة بإضافة الزمان كبعد رابع إلى أبعاد المكان (الطول والعرض والارتفاع)؛ لجعل طبيعة الفضاء نسيج زمكاني أشبه بشبكة الصيادين، فالمكان والزمان مرتبطان وكليهما نسبيان فضمهما أينشتاين معا بمصطلح الزمكان Space-Time تعبيرًا عن الفضاء؛ ويُحْدِث فيه كل جرم تقعرًا حسب ثقله، فالتقعر الذي تُحدثه الشمس في النسيج الكوني المَرِن أكبر من التقعر الذي تحدثه الأرض؛ فيؤدي لدورانها حول الشمس في أطراف التقعر الكبير الذي أحدثته على النسيج، فالنسيج الكوني المُنحني يفرض على الأرض بسبب الشمس أن تسير وفق ذلك الميلان فتبدو أنها مشدودة للشمس بقوة الجاذبية، والأرض إذن لا تدور حول الشمس لأنها تطلق قوة لتمسك بها؛ بل لأنها تسير في منحنيات طرائق مرسومة.

وفي عام ١٩١٦ قدم كارل شوارتزشيلد Karl Schwarzschild فكرة الثقوب السوداء Black Holes استنادًا على مفهوم نسيج الفضاء الكوني الذي ينحني تحت تأثير الكتلة، فاقترح أن كتلة كبيرة ككتلة نجم ضخم إذا تكاثفت في مكان صغير فإنها ستحني النسيج الكوني لدرجة لا تسمح لشيء بالهروب من جذبه ولا حتى الضوء، وبقي الاعتقاد أنها مجرد نظرية؛ إلى أن تم رصد مادة متوهجة كأنها تُبتلع حول مناطق غير مرئية كمركز مجرتنا، فكسبت فكرة الكون المنحني مزيدًا من التأييد؛ وأعطت إيحاءً باحتمال أن الكون كان بالمثل في حيز ضئيل وتمدد.

وفي عام ١٩٢٢ اقترح ألكسندر فريدمان Alexander Friedmann فرضية تمدد الكون استنادًا لطبيعة النسيج الكوني وفق مفهوم النسبية العامة، وفي عام ١٩٢٧ أعطى جورج لومتر Georges Lemaître فرضية امتداد الكون من نقطة أولية كثيفة اسم: افتراض الذرة الأولية، وفي نفس العام أطلق عليها فريد هويل Fred Hoyle ساخرًا في برنامج إذاعي في محطة B.B.C. الاسم الذي شاع لاحقًا: الانفجار الكبير Big Bang، لأنه كان يرفض أن للكون بداية؛ وقدم عام ١٩٤٩ مع توماس غولد وهيرمانبوندي نظرية الكون الأبدي أو الحالة الدائمة Steady State theory.

وفي عام ١٩٢٩ اكتشف إدوين هابل Edwin Hubble أن المجرات البعيدة في طيف الضوء القادم منها منزاحة نحو الجانب الأحمر فاستنتج أنها في ابتعاد؛ تتناسب سرعته مع البعد وفق ثابت سمي بثابت هابل، كحالة صفير قطار تتضاغط الموجات بقدومه فيصبح حادًّا؛ وتتخلخل مع ابتعاده، وتسمى ظاهرة دوبلر Doppler phenomenon، فأمكن التوصل إلى أن الكون قبل تمدده كان في البدء مُنحصرًا في نقطة كثيفة؛ يعكس شدة حرارتها إشعاع مميز، وفي عام ١٩٦٤ رصده أرنو بنزياس وروبرت ويلسون من كل جهة فسمي بالخلفية الإشعاعية Background Radiation، فتأكد أن الكون قد توسع بالانتفاخ Inflation كالبالون، وأن عمره محدود وله بداية؛ وإن شاعت باسم الانفجار الكبير.

وقد نسب هويل الحكمة والذكاء للنسيج؛ وتجاهل من حاكه في كتابه: الكون الذكي The Intelligent Universe، وتبعه هاوكنج في كتابه: التصميم العظيم The Grand Design بقوله: لا دليل؛ وكأن الكون المهيب والتصميم الرائع ليس بدليل؛ وما هو إلا انتحار في مواجهة التيار الجارف للعلم نحو التوحيد؛ وبداية تجعل الكون عارض وعمره محدود، وخالف هويل نفسه في مقالة عام ١٩٨١ بقوله: "أن احتمال ظهور أشكال الحياة صدفة يُقارن بفرصة قيام سيل يمر بساحة خردة؛ بتجميع طائرة بوينج ٧٤٧ صالحة للطيران"، وبالمثل خالف هاوكنج نفسه في كتابه: تاريخ موجز للزمن Brief History of Time؛ بقوله: "طالما أن للكون ابتداء؛ فحتمًا له خالق"[٤]، ووفق الموسوعة البريطانية فإن اختيار كل الأحماض الأمينية Amino Acids التي هي أساس تكوين البروتينات لتكون عسراء الاتجاه صدفة؛ بلا تدخل مقصود لإرادة مُوَجِّهَة، أشبه بقذف عملة معدنية في الهواء مليون مرة والحصول دائماً على نفس الوجه!، ونشأة خلية حية واحدة إذن من ذاتها يُعد احتمالا مُستحيلا؛ مثل احتمال قيام قرد بكتابة تاريخ البشرية كله على آلة كاتبة بلا أخطاء.

ومن البديهي أن النظام Order لا تَصْنَعُهُ فوضى Chaos والصدفة لا تُفَسِّرُه؛ وإنما هو شاهد عدل على الخلق مهما كانت الكيفية، ولو كانت التغيرات غير مقصودة؛ فَلِمَ كانت دائمًا في اتجاه الأصلح لتبني الكون المنظوم المحبوك؛ والتنويع مع وحدة البنية يُعارض الإلحاد Atheism، وليس إلا مشيئة الخالق وسبق تقديره وحسن تدبيره بِعِلْم واقتدار، والفلسفة المادية الناكرة لمبدأ الخلق قد دحضتها كل ميادين العلم؛ وإلا انعدم ثبات القوانين، ومن يظل مُعتقدا بها عليه ألا يحسب نفسه من المُحققين، وقد رأي أينشتاين في صنع الله تعالى: النظام والقصد والحكمة والتناسق والبساطة والأناقة والجمال؛ وهي رؤى ثاقبة للكون المنظوم المتقن المحبوك، ولو كان وليد الصدفة ما كان نظام وآليات وقوانين على كافة المستويات، قال نيوتن: "إن هذا التكوين البديع في النظام الكوني يجب أن يُفهم منه القصد في التنظيم"، وقال ماكس بلانك: "ينبغي على كل من يدرس العلم بجدية أن يقرأ العبارة الآتية على باب محراب العلم: تَحلَّى بالإيمان"[٥].

[٤] Stephen Hawking, Brief History of Time, page 122.

[٥] الشبكة الدولية للمعلومات.

(٢) تاريخ الكون

في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ٧٩النازعات:٢٧-٣٣؛ التعبير عن توسع الكون Universe Expansion برفع السماء حين البناء تمثيلاً، ورد فيه فعل (الرفع) في كل المواضع بصيغة الماضي بلا استثناء؛ مما يقصر حالة الاتساع على وقت البناء ويُعارض القول باستمراره إلى اليوم، يقول تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ الغاشية:١٧و١٨، ويقول تعالى: ﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ الرحمن:٧، ويقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الرعد:٢، وجاء التعبير عن الرفع بلفظ الخلق بيانا لتكامل البناء في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ لقمان:١٠، إنه عمل كامل يمكن مُعاينته اليوم؛ لذا ورد بيان خلقه بفعل (البناء) بالماضي كذلك بلا استثناء، يقول تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ النازعات:٢٧و٢٨، ويقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ ق:٦، ويقول تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ الشمس:٥، وفي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الذاريات:٤٧؛ فعل (بَنَيْنَاهَا) ماضي يفيد الانتهاء، فيعني أن (مُوسِعُونَ) أي قادرون، ولا يعني دوام التوسع بعد انتهاء البناء وإلا ما كانت لنهاية الكون ساعة، واسم الفاعل مُوَسِّعُون (بفتح الواو وتشديد وكسر السين) يعني دوام التوسعة، والذي في الآية: مُوسِعُون (بتسكين الواو وكسر السين) يعني دوام القدرة، والقدرة في مقام الخلق تعني إعادته؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ٢١الأنبياء:١٠٤.

وأصل اللفظ (لَمُوسِعُونَ): أي لذو سعة واقتدار؛ خاصة مع التأكيد بحرف اللام؛ وتكشف القرائن ماهية السعة لتعني أحوالا كسعة المكان وسعة الرزق وسعة الثراء وسعة القوة والقدرة، وفي مقام خلق الكون تعني القوة والقدرة والاستطاعة على إعادته؛ وتتضمن الدلالة سياقًا على بالغ امتداده إيغالا في بيان العلم والقدرة والعظمة، فتعني ضمنا التوسعة حين البناء، قال ابن جزي: "وسع يسع سعة من الاتساع ضد الضيق والسعة الغنى والواسع اسم الله تعالى أي واسع العلم والقدرة والغنى والرحمة"[٦]، وقال البغوي: "(وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لقادرون"[٧]، وقال الزمخشري: "{وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} لقادرون من الوسع وهو الطاقة"[٨]، وقال ابن حجر: "قوله (لَمُوسِعُونَ) أي لذو سعة؛ وكذلك (عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ) يعني في قوله تعالى: ﴿لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾ البقرة:٢٣٦، أي من يكون ذا سعة.. يعني القوي (القادر)، وروى بن أبي حاتم من طريق بن أبي نجيح قال (وإنا لموسعون) قال أن نخلق سماء مثلها"[٩]، وقال السمعاني: "قال مجاهد معناه يسع قدرتنا أن تخلق سماء مثلها"[١٠]، وقال السيوطي: "عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) قال: لنخلق سماء مثلها"[١١]، وقال الرازي: "وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانيا كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ يس:٨١"[١٢].

والتعبير (رفع سمكها) يوافق ما تأكد اليوم من توسع الكون عند نشأته، والفعل (بناها) بصيغة الماضي تعبير تصويري بالمثل يعلن اكتمال خلق الكون ويقصر التوسع على فترة البناء تمثيلا ببناء بيت في أيام متتابعة ذات مراحل متوالية مقدرة منذ البدء، والتعبير (أخرج ضحاها) تمثيل بالسطوع التدريجي للشمس فترة الضحى تعبيرًا عن تميز الأجرام مع الانبعاث التدريجي لطاقات الشمس والنجوم ذاتيًّا، وأما التعبير الصريح: (بعد ذلك)؛ فهو قرينة قاطعة بتعلق المقام بترتيب أحداث نشأة الكون حيث سبق تكوين السماء تكوين الأرض، وهذا الترتيب يوافق اليوم أوثق معطيات العلم.

---

[٦] التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي المتوفى سنة ٧٤١ هـ، دار الكتاب العربي لبنان ١٤٠٣ ط٤ (ج١ص٢٩).

[٧] معالم التنزيل للحسن بن سعيد الفراء البغوي المتوفى سنة ٥١٦ هـ، دار المعرفة بيروت ١٤٠٧ ط٢ (ج٤ص٢٣٤).

[٨] الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى سنة ٥٣٨، دار إحياء التراث بيروت (ج٤ص٤٠٧).

[٩] فتح الباري شرح صحيح البخاري لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ (ج ٨ ص ٥٩٩).

[١٠] تفسير أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني المتوفى سنة ٤٨٩ هـ، دار الوطن الرياض ١٤١٨، ج٥ص٢٦٢.

[١١] الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ت ٩١١ هـ، دار الفكر بيروت ١٩٩٣م، ج٧ص٦٢٣.

[١٢] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب لابن خطيب الري فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢١، ج٢٨ص١٩٣.

قال الرازي: "(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ).. نَبَّهَهُمْ عَلَى أَمْرٍ يُعْلَمُ بِالْمُشَاهَدَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ خِلْقَةَ الْإِنْسَانِ عَلَى صِغَرِهِ وَضَعْفِهِ، إِذَا أُضِيفَ إِلَى خَلْقِ السَّمَاءِ عَلَى عِظَمِهَا وَعِظَمِ أَحْوَالِهَا يَسِيرٌ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ خَلْقَ السَّمَاءِ أَعْظَمُ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَخَلْقُهُمْ عَلَى وَجْهِ الْإِعَادَةِ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَقْدُورًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَكَيْفَ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ؟ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) يس:٨١، وَقَوْلُهُ: (لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) غَافِرٍ:٥٧..، قوله تعالى (رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها)..: اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ فِي السَّمَاءِ أَنَّهُ بَنَاهَا؛ بَيَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ كَيْفَ بَنَاهَا وَشَرَحَ تِلْكَ الْكَيْفِيَّةَ مِنْ وُجُوهٍ؛ أَوَّلُهَا: مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَكَانِ، فَقَالَ تَعَالَى: (رَفَعَ سَمْكَها)، وَاعْلَمْ أَنَّ امْتِدَادَ الشَّيْءِ إِذَا أُخِذَ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ سُمِّيَ عُمْقًا، وَإِذَا أُخِذَ مِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ سُمِّيَ سَمْكًا، فَالْمُرَادُ بِرَفْعِ سَمْكِهَا شِدَّةُ عُلُوِّهَا.، الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَسَوَّاها).. الْمُرَادُ تَسْوِيَةُ تَأْلِيفِهَا.، الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها).. أَغْطَشَ.. جَعَلَهُ مُظْلِمًا، وَالْغَطَشُ الظُّلْمَةُ.، قَوْلُهُ: (وَأَخْرَجَ ضُحاها) أَيْ أَخْرَجَ نهارها، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنِ النَّهَارِ بِالضُّحَى؛ لِأَنَّ الضُّحَى أَكْمَلُ أَجْزَاءِ النَّهَارِ فِي النُّورِ وَالضَّوْءِ"[١٣]،

وقال ابن كثير: "قَوْلُهُ {بَنَاهَا} فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ {رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} أَيْ جَعَلَهَا عَالِيَةَ الْبِنَاءِ.. مُكَلَّلَةً بِالْكَوَاكِبِ (والنجوم).. وَقَوْلُهُ: {وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} أَيْ: جَعَلَ لَيْلَهَا مُظْلِمًا أَسْوَدَ حَالِكًا؛ وَنَهَارَهَا مُضِيئًا مُشْرِقًا نَيِّرًا وَاضِحًا"[١٤].

وقال الطاهر بن عاشور: "قد عدَّ الله تعالى السماوات سبعًا وهو أعلم بها وبالمراد منها إلا أن الظاهر الذي دلت عليه القواعد العلمية أن المراد من السماوات (آفاق) الأجرام العلوية العظيمة.، ويدل على ذلك أمور: أحدها أن السماوات ذُكرت في غالب مواضع القرآن مع ذكر الأرض..؛ فدل على أنها عوالم كالعالم الأرضي.، ثانيها أنها ذكرت مع الأرض من حيث أنها أدلة على بديع صنع الله تعالى؛ فناسب أن يكون تفسيرها (آفاق) تلك الأجرام المُشاهدة"[١٥]، "و(السَّماءُ) يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجِنْسُ.. (في مواضع)؛ أَيِ السَّمَاوَاتُ.، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ سَمَاءٌ مُعَيَّنَةٌ.. وَهِيَ الْكُرَةُ الْفَضَائِيَّةُ الْمُحِيطَةُ بِالْأَرْضِ وَيَبْدُو فِيهَا ضَوْءُ النَّهَارِ وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ..، (بَناها).. الْبِنَاءُ: جَعْلُ بَيْتٍ أَوْ دَارٍ مِنْ حِجَارَةٍ، أَوْ آجُرٍّ أَوْ أَدَمٍ أَوْ أَثْوَابٍ مِنْ نَسِيجِ الشَّعْرِ مَشْدُودَةٌ شُقَقُهُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِغَزْزٍ أَوْ خِيَاطَةٍ وَمُقَامَةٌ عَلَى دَعَائِمَ، فَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ بِأَدَمٍ؛ يُسَمَّى قُبَّةً، وَمَا كَانَ بِأَثْوَابٍ يُسَمَّى خَيْمَةً وَخِبَاءً، وَبِنَاءُ السَّمَاءِ: خَلْقُهَا، اسْتُعِيرَ لَهُ فِعْلُ الْبِنَاءِ لِمُشَابَهَتِهَا الْبُيُوتَ.، وَجُمْلَةُ (رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها) مُبَيِّنَةٌ لِجُمْلَةِ بَناها.، وَسُلِكَ طَرِيقُ الْإِجْمَالِ ثُمَّ التَّفْصِيلِ لِزِيَادَةِ التَّصْوِيرِ.، تَعْدِيَةُ فِعْلِ (رَفَعَ) إِلَى السَّمْكِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الرَّفْعِ.، (فَسَوَّاها).. أَتْقَنَ صُنْعَهَا.، وَهَذِهِ الْآيَةُ أَظْهَرُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ بَعْدَ السَّمَاوَاتِ؛ وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَمُقَاتِلٍ وَالسُّدِّيِّ، وَهُوَ الَّذِي تُؤَيِّدُهُ أَدِلَّةُ عِلْمِ الْهَيْئَةِ"[١٦].

وبالفعل تنتظم حشود النجوم في آفاق طباق دون أقصى ما يُمكن أن يبلغه نظر باستخدام المراصد الراديوية والمسماة أشباه النجوم Quasars، فتنتمي مجموعتنا الشمسية لمجموعة نجومية محلية تتبع حشد أكبر Super-Cluster يتبع مجرتنا، وتتبع بدورها مجموعة مجرية محلية؛ تتبع حشدًا مجريًّا أكبر، وبخلاف ورود لفظ السماء في الكتاب العزيز بالجمع والإفراد لا يَرِد لفظ (الأرض) دالا على الكوكب إلا بالإفراد لأنه منسوب إلى المُخاطبين في الأرض.

وقال القاسمي: "(بَناها).. البناء ضم الأجزاء المُتفرّقة بعضها إلى بعض، مع ربطها بما يُمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة (مضمُومة مُترابطة)، وهكذا صنع الله بالكواكب، وضع كلّا منها على نسبة من الآخر، مع ما يُمسك كلّا في مداره، حتى كان عنها (بناء) واحد..، (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ): أي بعد تسوية السماء..؛ وإبراز الأضواء"[١٧].

وقال المراغي: "(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)؛ أي ضم أجزاءها المُتفرقة وربطها بما يُمسكها حتى حصل عن جميعها بنية واحدة، فقد أبدع في خلق الكواكب؛ وجعل كل كوكب منها على نسبة من الآخر، وجعل لكل منها ما يُمسكه في مداره؛ حتى كان من مجموعها ما يشبه البناء، وهو ما نُسميه بالسماء"[١٨].

---

[١٣] فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (٣١\ ٤٢).

[١٤] أبو الفداء إسماعيل بن كثير؛ تفسير بن كثير، المحقق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية؛ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ (٨\ ٣١٦).

[١٥] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١\ ٣٨٥).

[١٦] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (٣٠\ ٨٣).

[١٧] محمد جمال الدين القاسمي؛ محاسن التأويل، المحقق محمد باسل عيون السود؛ دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى؛ ١٤١٨هـ (١٩\ ٤٠١).

[١٨] أحمد مصطفى المراغي؛ تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م (٣٠\ ٢٩).

وقال محمود شكري الألوسي: "الْمرَاد بالسَّمَاء الأجرام العلوية أَو جِهَة الْعُلُوّ..، وَالنَّاس مُخْتَلفُونَ فِي خلق السَّمَاء وَمَا فِيهَا وَالْأَرْض وَمَا فِيهَا بِاعْتِبَار التَّقَدُّم والتأخر..، فَذهب بَعضهم إِلَى تقدم خلق السَّمَاوَات لقَوْله تَعَالَى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) النازعات:٢٧-٣٣، وَذهب آخَرُونَ إِلَى تقدم خلق الأَرْض لقَوْله تَعَالَى (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) فصلت:٩-١٢..، قَالَ بعض الْمُحَقِّقين: اخْتلف الْمُفَسِّرُونَ فِي أَن خلق السَّمَاء مقدم على خلق الأَرْض أَو مُؤخر نقل الإِمَام الواحدي عَن مقَاتل الأول، وَاخْتَارَهُ الْمُحَقِّقُونَ وَلم يَخْتَلِفُوا فِي أَن جَمِيع مَا فِي الأَرْض مِمَّا ترى مُؤخر عَن خلق السَّمَاوَات السَّبع؛ بل اتَّفقُوا عَلَيْهِ"[١٩].

وقد ورد عن الأعلام أن السماء التي تشكلت إلى طبقات بعد تشكيل الأرض ليست كل ما يعلُوها من الكون؛ وإنما جو الأرض كان دخانًا خرج منها عند تكونها فتشكل طبقات؛ يعني في آخر يومين من الأربعة، وجملة: (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ)؛ اعتراضية أفادت أن خلق الأرض قد تم في أربعة أيام من الستة أيام لخلق الكون، في نفس فترة تكوين طبقات الجو؛ كانت الأرض إذن كتلة نارية ملتهبة أحاطها الدخان، قال الماوردي أنه: "الدخان الذي جعله الله للأرض سماء"[٢٠]، وكأنهم رحمهم الله تعالى قد فسروا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ ٢البقرة:٢٩، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ٤١فصلت:١١و١٢، وكليهما بعد اكتمال خلق الأرض، وبهذا تُحفظ للأداة (ثم) دلالتها على ترتيب الأحداث.

وفي النبأ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ ٢البقرة:٢٩، والنبأ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ٤١فصلت:١١و١٢؛ اللائق في مقام خلق الأرض مجاراة ترتيب النظم بحمل السماء بالإفراد على أصل الجو وبالجمع على طبقات الجو، قال ابن عاشور: "والسماء إن أُريد بها الجو المُحيط بالكرة الأرضية؛ فهو تابع لها (في النظم) مُتأخر عن خلقها، وإن أُريد بها (آفاق السَّمَاوَات العُلَى فهي).. أعظم من الأرض فتكون أسبق خلقًا"[٢١]؛ وبالتمييز بين السماء السابقة للأرض في النَّظم والتي تلحق بها؛ يُزول نهائيًّا إشكال أسبقية تكوين الأرض أم السماء، وبهذا التمييز يتجلى الإنباء بالغيب!.

وأما حديث إنزال الأيام الستة على أيام الأسبوع؛ فقد قال فيه ابن كثير: "فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده.. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي؛ فقال: (خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة..)؛ فقد رواه مسلم بن الحجاج... والنسائي... عن حجاج وهو ابن محمد الأعور عن ابن جريج... وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعا"[٢٢]، "وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَرَائِبِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ"[٢٣]، وتُطابق تلك الرواية بالفعل ما ورد في الأسفار من نشأة النبات قبل نُور الشمس: "وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر.. وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا، وقال الله لتكن أنواراً.. فعمل الله النورين العظيمين؛ النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل.. وكان مساء وكان صباح يوما رابعا" تكوين:١ ١٦ Genesis[٢٤].

---

[١٩] أبو المعالي محمود شكري الألوسي؛ ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي لبنان، الطبعة الثانية؛ ١٣٩١هـ- ١٩٧١م (ص١٩).

[٢٠] تفسير الماوردي (ج١ص٩٢).

[٢١] تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (ج١ص٣٨٤).

[٢٢] تفسير ابن كثير (ج٢ص٢٢١).

[٢٣] أبو الفداء إسماعيل بن كثير؛ تفسير بن كثير، المحقق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية؛ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ (١١ ٢١٤).

[٢٤] ترجمة سميث وفانديك Smith & Van Dyke VSD، نشر كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي بالإسكندرية مصر.

وفي سبعة مواضع يُقرر القرآن الكريم أن خلق العالم قد تم في عملية واحدة ذات أطوار كما لو كان بناءً واحداً تتابع تشييد خطة تصميمه المُقدرة منذ بدء نشأته: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الأعراف:٥٤، يونس:٣، هود:٧، الفرقان:٥٩، السجدة:٤، ق:٣٨، الحديد:٤، والأيام ذوات العدد في مقام بناء الكون هي أقرب مثال لبيان سبق التقدير والقصد منذ البدء لا الصدفة العمياء؛ خاصة أن التمثيل هو الأسلوب الأمثل في تعبير القرآن الكريم لكشف الحقائق الخفية بضرب المثل بالنظير المألوف، فيستقيم إذن أن تكون الستة أيام تمثيلاً؛ خاصة أن الزمن ناتج عن حركة أجرام، وعند التكوين لم تُوجد أجرام بعد، والكون بهذا ليس أبدي الوجود؛ وإنما تشكل في فترات مُقدرة بلا توقف أو تردد كما لو كانت ستة أيام متلاحقة في بناء بيت مُوحد التصميم مُرتبط الأركان فخم المعمار، وكالإنسان قدرت أيام حمله؛ كذلك قدرت أحوال الأرض في يومين من الستة قبل تشكل سطحها وجوها، والكل أربعة أيام.

قال الشوكاني: "المُراد بالأيام الأوقات؛ أي في ستة أوقات..، ولا يستقيم أن يكون المُراد بالأيام هنا الأيام المعروفة وهي المقابلة لليالي؛ لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء"[٢٥]، وقال أبو السعود: "السماوات في يومين، والأرض في يومين، وما عليها من أنواع الحيوانات والنبات.. في يومين، والمُراد بالأيام الأوقات..، فإن اليوم في المُتعارف زمان كون الشمس فوق الأرض، ولا يُتصور ذلك حين لا أرض ولا سماء"[٢٦]، وقال السمعاني: "قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ ٤١فصلت:١٠؛ أي في تمام أربعة أيام مع اليومين الأولين، وهذا كالرجل يقول: ذهبت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وذهبت من بغداد إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً، أي في تمام خمسة عشر يوما..؛ هذا كلام العرب، ومن طعن فيه لم يعرف كلام العرب"[٢٧].

الفترات الأربعة إذن التي تم فيها خلق الأرض وُصفت بالأيام؛ ليس على ظاهر اللفظ وإنما من باب التمثيل، وبمقياس الأيام تساوت مرحلة تكوين الأرض الأولية مع مرحلة التكميل بنشأة الغلاف الصخري فوقها وأوليات الأحياء، فالنبأ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾؛ تصريح بالانتهاء، والنبأ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾؛ تعبير تصويري عن إطاعة الجمادات للتقدير المُسبق كأنها عُقلاء مُكلفين تعريضًا بالإنسان، ولا يصح إذن بعد نشأة الأحياء حمله على مرحلة خلق تالية؛ وقد انتهى خلق الأرض، وإنما يستقيم عودة جملة: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) على جملة: (خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ)، فتكون جملة: (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) اعتراض؛ وبيان باكتمال نشأة الأرض بغلافها الصخري والجوي في أربعة أيام، فيعني أن سماء الكون التي نشأت سابقًا: في يومين.

وعندما يكون مصدر مُوجة صوتية أو ضوئية مُقتربًا؛ تتضاغط أمامه الموجات ويتزايد ترددها، بينما تتخلخل إذا كان مُبتعداً، وبرصد انحراف خطوط طيف المجرات العظمى للجانب الأحمر Red Shift اكتشف إدوين هابل Edwin Hubble عام ١٩٢٩ أنها تبدو في تباعُد؛ تتزايد سرعته مع البعد بمعدل ثابت سُمِّيَ بثابت هابل Constant Hubble، ومع بلوغ سرعة التباعُد قيمة سرعة الضوء القادم منها لا تُشاهد؛ ويَتَعَيَّن حد الكون المُمْكِن الرَّصد، وبالتالي يُمكن تقدير عمر الكون وفق قانون هابل: عمر الكون = {سرعة الضوء×مليون}\ ثابت هابل، وباعتبار قيمة ثابت هابل تتراوح بين ٣٠ و٢٠ كم\ثانية؛ يكون عمر الكون في حدود: ١٢,٥ (١٠-١٥) بليون سنة.

وفي عام ٢٠٠١ نتيجة لتمايز طفيف بالخلفية الإشعاعية قَدَّر تشارليس بينيت Charles Bennett أن عمره: الكون: ١٣,٧٥ بليون سنة، وفي نفس العام اكتشف روجر كيريل Roger Cayrel وفريقه من عدة دول؛ عنصر مُشع معلوم نصف العمر في نجم قديم، فقدر أن عمر الكون على الأقل: ١٢,٥ بليون سنة؛ باعتبار أن عمر الكون لا يقل عن عمر أقدم مادة فيه، واستخدام العناصر المُشعة أسلوب حديث واعد؛ يُبشر بدقة التقديرات.

---

[٢٥] فتح القدير للشوكاني (ج٢ص٤٨٢).
[٢٦] تفسير أبو السعود (ج٤ص١٨٧).
[٢٧] تفسير السمعاني (ج٥ص٤٢).

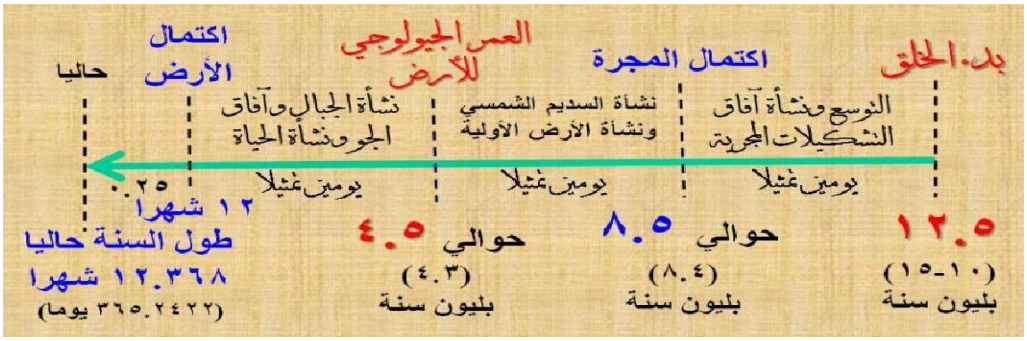

فإذا كان خلق الكون كله في ستة أيام تعبيرًا بالتمثيل بأيام الأسبوع المعهودة عن تلك الأزمنة الهائلة فوق كل تصور قديم؛ فإن خلق الأرض بدون السطح الصخري والجو في يومين ومجموع فترات خلقها أربعة أيام؛ وباعتبار أن اكتمال خلق الأرض بغلافها الصخري والجوي قد وقع منذ حوالي: ٠,٢٥ بليون سنة؛ حين ارتفعت نسبة الأكسجين في الجو ونشأت أم القارات Pangea وبدأت تنقسم إلى القارات الحالية، ووقع أكبر هلاك جماعي للأحياء في تاريخ الأرض Permian–Triassic Extinction[٢٨]؛ وأن العمر الجيولوجي للأرض على أقصى تقدير: ٤,٧٥ (٤,٥-٥) بليون سنة، وعلى أقل تقدير: ٤,٣ (٤-٤,٦) بليون سنة، يكون بدء خلق الكون قد وقع على أقصى تقدير منذ: ١٣,٧٥ بليون سنة، وإذا أخذنا بالأحوط؛ تكون النشأة الكونية على أقل تقدير منذ: ١٢,٥ بليون سنة.

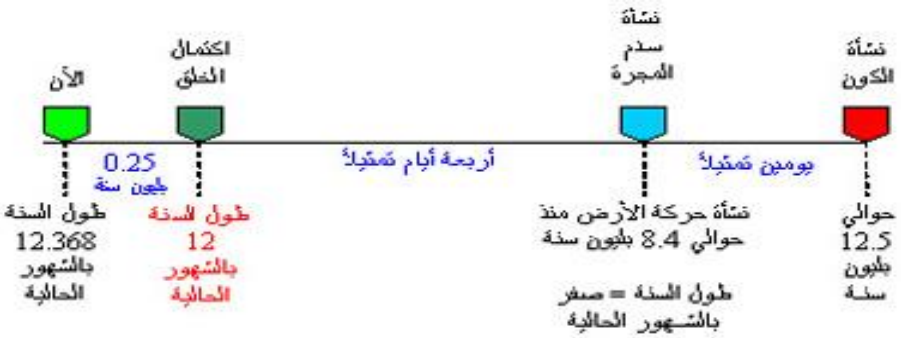

وإذا كان الزمان قد تطاول حتى أصبحت السنة الشمسية ٣٦٥,٢٤٢١٩ يومًا، أي ١٢,٣٦٨ بالشهور القمرية الحالية في مدة ٨,٤ بليون سنة، وعند الاكتمال: ١٢ شهراً قمريا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ٩التوبة:٣٦، وبالاكتفاء بالقمرية بحذف النسيء لمضاهاة الشمسية يكون الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض؛ كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، ونظير الستة أيام تمثيلاً؛ يتأكد أن عمر الكون على الأقل: ١٢,٥ (١٠-١٥) بليون سنة.

ومدة دورة الشمس حول مركز المجرة حوالي: ٠,٢٥ بليون سنة أرضية، وتُسمى سنة كونية Cosmic Year، وبأكبر مقياس للزمن في عالمنا يكون عمر الكون على الأقل: ٥٠ سنة، ويقطع الضوء المسافة لطرف الكون المُمكن الرصد في مدة تماثل عمر الكون، وإذا اعتُبرت الأرض ساكنة وفق ما كان الناس يَعُدُّونَهَا Geocentric Model وحركة القمر المقياس؛ تكون سرعة الضوء: مسافة ألف سنة قمرية في يوم، وبإيجاز: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ٣٢السجدة:٥،وتُقطع أقصى مسافة في: ٥٠ سنة كونية بسرعة الضوء؛ أي أن أكبر مسافة مُمكنة الرصد: ٥٠ سنة كونية بسرعة ألف سنة قمرية في يوم[٢٩]، وبإيجاز: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ٧٠المعارج:٤.

---

[٢٨] انقراض العصر البرمي الترياسي المعروف باسم الموت العظيم هو انقراض جماعي وقع منذ حوالي ٢٥٠ مليون سنة، بين العصرين الجيولوجيين البرمي والترياسي، كان هذا الحدث أكبر انقراض جماعي شهده الأرض؛ قضى على نحو ٩٦ ٪ من كل أنواع الأحياء البحرية و٧٠ ٪ من الفقاريات الأرضية (ويكيبيديا).

[٢٩] بحث منشور باسم: سرعة الضوء في القرآن الكريم؛ تناول دراسة للآيات الكريمة: ٢٢الحج:٤٧، ٣٢السجدة:٥، ٧٠المعارج:٤.

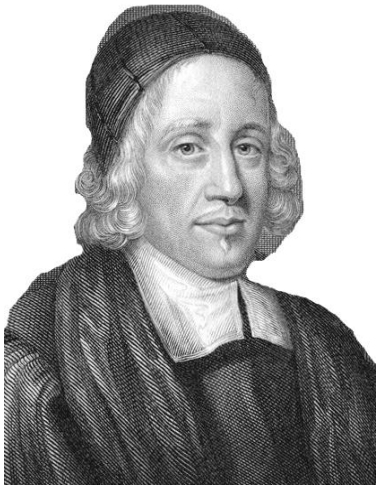

جون لايتفوت John Lightfoot
(١٦٠٢-١٦٧٥)

جيمس أوشر James Ussher
(١٥٨١-١٦٥٦)

وفي عام ١٦٥٤ نشر جيمس أوشر James Ussher (١٥٨١-١٦٥٦) كبير أساقفة الكنيسة الأيرلندية استنتاجه من أسفار العهد القديم؛ أن بدء خلق العالم كان ليلة الأحد ٢٣ أكتوبر عام ٤٠٠٤ ق.م، بينما اختار القس جون لايتفوت John Lightfoot (١٦٠٢-١٦٧٥) عام ٣٩٢٩ ق.م؛ أي بعد نشأة حضارات مصر وبلاد ما بين النهرين بقرون[٣٠]، ومرجع الخطأ حمل تعبير (ستة أيام) على ظاهر اللفظ لا التمثيل؛ وهو نفس الخطأ الفادح للآباء من قبل في حمل تعبير (ابن الله) على الظاهر لا التمثيل فحادوا عن مبدأ التوحيد، وهكذا أثبتت الأيام كم بَعُدَ الآباء والأتباع المُقلدين عن الحقيقة.

قال الرازي: "في ستة أيام إشارة إلى ستة أطوار..، المُراد من الأيام لا يُمكن أن يكون هو المفهوم في وضع اللغة؛ لأن اليوم عبارة عن زمان مُكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب، وقبل السماوات لم يكُن شمس ولا قمر، لكن اليوم يُطلق ويُراد به الوقت..، وقال بعض المفسرين المُراد من الآية الرد على اليهود؛ حيث قالوا بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه في ستة أيام آخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت..، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ٥٠ق:٣٨؛ ردًّا عليهم.. أي ما تعبنا، وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة؛ فهو إما تحريف منهم، أو لم يعلموا تأويله، وذلك لأن الأحد والاثنين أزمنة مُتميز بعضها عن بعض، فلو كان خلق السماوات ابتدئ يوم الأحد؛ لكان الزمان مُتحققا قبل الأجسام، والزمان لا ينفك عن الأجسام"[٣١].

ولما كانت فكرة مركزية الأرض Geocentric Model قد دفعتها مشاهدات سابقة فلم يبق إلا قبول مبدأ التجانس Uniformity في تباعد المجرات أو اقترابها بحيث يُعاين المُراقب من أي موقع في الكون نفس ما يُعاينه المُراقب على الأرض، ولما كان الكون حادثًا وليس أزليًا، والتوسع المُعاين في طيف المجرات العظمى يعكس الماضي البعيد عندما صدر الضوء المحدود السرعة منها منذ بلايين السنين فليس مُستبعدا أن يكون الكون آيل للانهيار والزوال؛ خاصة أن المجرة الأقرب إلينا كمثال، وهي المرأة المسلسلة Andromeda تبدو في اقتراب بسرعة قُدرت بحوالي: ٣٠٠ كم/ثانية[٣٢]، فإذا شمل التجانس ابتعاد المجرات واقترابها؛ فليس مُستبعدا أن يكون الكون حاليا ينطوي في انكماش قد بلغتنا شواهده من الطرف الأقرب، ولم تصلنا بعد من المجرات الأعظم إلا شواهد الانحسار في الماضي نتيجة لبعدها الشديد، والقول إذن بأن الكون في اتساع مُستمر يتجاهل اقتراب أقرب المجرات والسرعة المحدودة لضوء المجرات الأعظم؛ ذات الأبعاد الهائلة، وهو في جانب وهم أزلية المادة والتشكيك في مبدأ حدوث الكون واستبعاد نهايته.

---

[٣٠] English Wikipedia; the international Encyclopedia: Annals of the Old Testament deduced from the first origins of the world

[٣١] التفسير الكبير للرازي (ج٢٨ص١٥٨).

[٣٢] The First Three Minutes, Steven Weinberg, p30

(٣) تاريخ الأرض

(أ) أطوار خلق الأرض:

التعبير: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)؛ يجعل لها وجود قبل التهيئة التي انتهت بنشأة الحياة والإنسان، والعدول لكلمة (دَحَاهَا) بيان لسبق التقدير بتمهيد الأرض بقصد نشأة الإنسان؛ تمثيلاً بتمهيد النعامة للتراب لتضع البيض، بينما بقية الطيور تبني أعشاشًا، والصورة البيانية؛ تَسْتَدْعِي مشهد تمهيد تراب هش أشبه بسديم هش البنية، يعقبه مشهد بيض ما يلبث إلا وقد بُثت فيه الحياة، وكأن الصورة البيانية تُحاكي تهيئة الأرض السديمية وأمثالها كي تنشأ في الكون الحياة.

ومعنى التمهيد مُستمد من الصورة البيانية التي يُوحيها الفعل (دَحَاهَا)، باعتبار أصل الأرض كتلة سديمية مُتجانسة؛ قبل أن تكتسب الشكل الكروي والطبقات كالبيضة، والقرينة: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)؛ أي المواد الأخف التي انتهت بازدهار الحياة في المراعي حيث تُرعى المواشي، وفي المُقابل نزلت المواد الأثقل خاصة الحديد نحو اللب، وفي خروج الماء ليُكون سُحبًا تسُوقها الرياح؛ تضمين بنشأة طبقات الجو أثناء تكوُّن السطح الصخري كالبساط: (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)، فالنشأة الجيولوجية إذن للأرض تسبقها حالة سديمية؛ والقصد منذ البدء التمهيد لنشأة الإنسان: (مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ).

قد ورد النص صريحًا بأن الأرض كروية كالبيضة؛ قال ابن حزم (رحم الله تعالى عُلماء الأمة): "إن أحدًا من أَئِمَّة الْمُسلمين الْمُسْتَحقّين لاسم الْإِمَامَة بِالْعلمِ رَضِي الله عَنْهُم؛ لم ينكروا تكوير الأَرْض، وَلَا يحفظ لأحد مِنْهُم فِي دَفعه كلمة؛ بل الْبَرَاهِين من الْقُرْآن وَالسّنة قد جَاءَت بتكويرها، قَالَ الله عز وَجل: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ٣٩الزمر:٥، وَهَذَا أوضح بَيَان فِي تكوير بَعْضهَا على بعض مَأْخُوذ من كور الْعِمَامَة وَهُوَ إدارتها، وَهَذَا نَص على تكوير الأَرْض ودوران الشَّمْس كَذَلِك"[٣٣]، وقال سيد قطب: (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ).. تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسرًا على الالتفات إلى ما كُشِفَ حديثاً عن كروية الأرض، فالأرض.. تدور حول نفسها في مواجهة الشمس؛ والجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً، ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور، وكلما تحركت بدأ الليل يغمُر السطح الذي كان عليه النهار، وهذا السطح مُكور؛ فالنهار كان عليه مُكورًا والليل يتبعه مُكورًا كذلك..، النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل، وهكذا في حركة دائبة (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ)..، واللفظ يرسم الشكل ويحدد الوضع..، وكروية الأرض ودورانها (فلكيًّا) يُفسران هذا التعبير تفسيرًا أدق من أي تفسير"[٣٤].

---

[٣٣] أبو محمد علي بن حزم الأندلسي؛ الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي بالقاهرة (١٢ ٧٨).

[٣٤] سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي؛ في ظلال القرآن، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة السابعة عشر؛ ١٤١٢هـ (١٥ ٣٠٣٨).

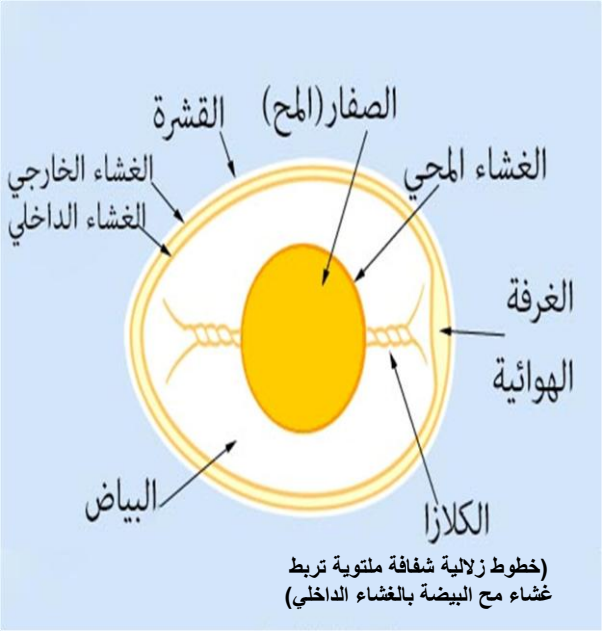

(خطوط زلالية شفافة ملتوية تربط
غشاء مح البيضة بالغشاء الداخلي)

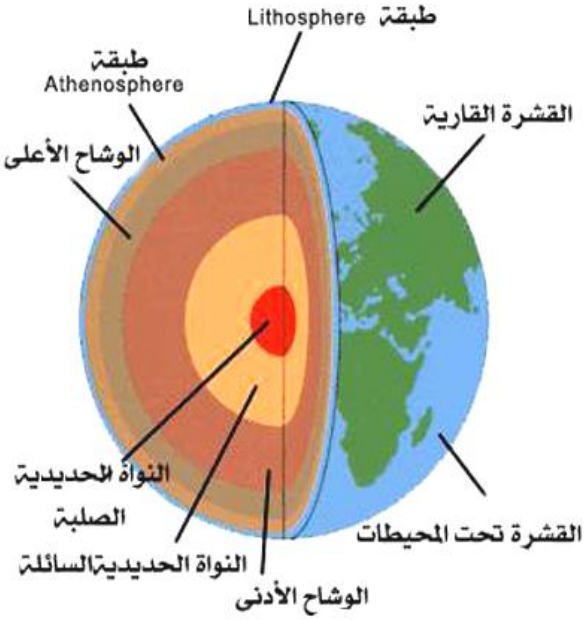

فالمُشابهة إذن بين الأرض والبيضة لا تُنكر؛ من حيث التكوير، فضلا عن طبقية التكوين وصلابة الطبقة السطحية، لكن استناد المُشابهة على لفظ (دَحَاهَا) منزوعًا من الصورة البيانية تأباه اللغة؛ والاستدارة مبنية في التمثيل على سبق التمهيد ببيان مرحلة خروج المواد الأخف للأعلى وتكوين القشرة السطحية: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)، فالاستدارة إذن والطبقية بالتبعية اكتُسبتا من كتلة بلا شكل ولا طبقات؛ ومضمون السياق تكميل كل التفاصيل.

والإيجاز عماد الفصاحة؛ والاحتباك وجه منه بذكر تعبيرين يُحذف من الأول ما جاء نظيره أو مُقابله في الثاني؛ ويُحذف من الثاني ما جاء نظيره أو مُقابله في الأول، ومأخذ التسمية من الحَبْك؛ وهو الشدّ وإحكام صنعة الثوب، فحبك الثوب هو سدّ ما بين خيوطه من الفُرج وشدّه لبعضه وإحكامه؛ مع الحُسن والرونق، والعلاقة هنا بين التعبيرين: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)، و(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)؛ أشبه بالاحتباك، أفاد الأول أن الأرض قبل دحوها استقلت حين تسوية السماء وتميز لبنات البناء؛ وأفاد الثاني أن دحوها لازمه تكون الطبقات الأخف أعلاها، وخروج الماء والمواد الأخف أدى لتكوين الجو والتربة ونشأة المراعي الخضراء العامرة بالمواشي؛ والدلالة الضمنية إذن مُقابل خروج المواد الأخف؛ هي نزول المواد الأثقل خاصة الحديد، ويلزم إذن أنه كلما ازداد العمق ازدادت الكثافة، لذا تُخرج الأرض أثقالها إذا انفجرت: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ٩٩الزلزلة:٢، وحينئذٍ تتخلَّى عن كل ما عليها بفقدان جاذبية ما فيها من أثقال: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ ٨٤الإنشقاق:٤، وبحركة الحديد في لب الأرض تولدت الأغلفة المغناطيسية كالجند مُعقبات تحفظ الإنسان بلا دراية منه من خطر الرياح الشمسية القاتلة، وهو صريح قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ ٥٧الحديد:٢٥؛ وكأنه تعالى يدعُو المُوهلين في عصر العلم؛ لبيان براهين صدق خاتم النبيين تأييدًا لرسالته وكل والمُرسلين بوحدانية العلي القدير.

(ب) كلمة واحدة أوحت كل تاريخ الأرض:

كلمة (دَحَاهَا) جامعة لكل فصول خلق الأرض، وفي ضوء منظومة النصوص المُتعلقة بتاريخ الأرض؛ تُوحي كلمة (دَحَاهَا) بنقلة هائلة من تجمع تراب وهباء منثور؛ انفصل وتميز ثم تشكل وتهيأ حتى عمرت الأرض بالحياة، والجامع إذن في التمثيل بسبق تمهيد النعامة لموضع بيضها كي تنشأ حياة؛ هو سبق تمهيد الأرض كي تنشا حياة، وتمثيلا بالأيام؛ استغرقت الأرض السديمية يومين، واكتسبت كرويتها وتشكلت طبقات؛ إلى أن نشأت حياة في يومين.

وكل الطيور تبيض في أعشاش، لكن النعامة خير مثال لتمهيد الأرض للحياة؛ لأنها تنكُش التراب وتُمهده لتضع البيض كي تنشأ حياة، فالمثل جامع لمشهد التهيئة لتراب منثور يتبعه مشهد بيضة مستديرة ثم مشهد الحياة، وكأن المشاهد تُحاكي في تاريخ الأرض؛ مشهد تراب منثور، يتبعه مشهد بيضة مستديرة، وأخيرا مشهد الحياة، صورة بيانية مُركبة بكلمة واحدة جامعة لمشاهد متتابعة، والجامع في التمثيل في أول مشهد هو التمهيد؛ والبسط تفسير مُنتزع مما تصنع النعامة؛ والتمهيد أشمل، ولا تكاد تَذكر كلمة البسط في بيان وجه الشبه إلا وألحقوها بكلمة التمهيد، قالوا في أرشيف مُلتقى أهل الحديث: "(دَحَاهَا) لا تأتي بمعنى بسطها؛ حتى يُضاف إلى ذلك التسوية والتمهيد، فالمعنى أن الله تعالى جعل الأرض مُمهدة ومُسهلة للعيش..، أما القول إن (دَحَاهَا) تعني أنه سبحانه وتعالى جعلها كالدحية أي البيضة فغير مُسلَّم؛ لأن (موضع بيض) الطائر (وهو النعامة) سُمي بذلك لأن الطائر يُمهده، ثم هو يدفع البيض ويُقلِّبه، أما القول: اعتماد دلالات الكلمات القرآنية في عصر نزول القرآن؛ فعين الصواب"[٣٥].

والمراجع اللُّغوية لا تُرجح أن فعل (دَحَاهَا) يعني جعلها كالبيضة؛ وإنما حُفرة تُمهدها النعامة لتضع بيضها، وتمثيل الأرض بالبيضة مُنتزع مما استلزم التمهيد بالدحو وضعه، وهو بيضة مُستديرة طبقية التكوين مُقابل الكرة الأرضية، ولا يأبى مشهد وضع بيضة في الصورة البيانية أن يُوحي بتكوير الأرض وأنها طبقات وقشرتها طبقة صُلبة كالبيضة، والغرض المنشود من التمهيد بوضع بيضة هو نشأة حياة؛ وبالمثل الأرض: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ٥٥الرحمن:١٠، وفي وجهي التمثيل ببيضة تُنتج حياة وأرض تُنبت إنسانًا؛ فحوى الخطاب هو التمهيد بقصد واقتدار بيانًا لسبق التقدير، هذه بعض ملامح التصوير بالفعل الماضي (دَحَاهَا)؛ تمثيلاً بنعامة تدحو موضع وضع البيض بجامع التمهيد لنشأة حياة.

وقد أوحت الصورة البلاغية (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) إلى كثيرين أن الكرة الأرضية مُثلت بالبيضة، قال الزحيلي: "دل قوله تعالى: (دَحاها) على أن كروية الأرض ليست تامة؛ بل هي مفلطحة كالبيضة"[٣٦]، وقال ابن الخطيب: "جعلها كالدحية وهي البيضة، ويؤيده ما ذهب إليه الفلكيون والجغرافيون من كروية الأرض؛ وانبعاجها كالبيضة"[٣٧]، وقال مالك بن نبي: "الدحو.. تعبير يتصل بشكل الأرض البيضاوي..، ويطلق على البيضة في بعض البلاد العربية"[٣٨]،

وفي مجلة مجمع الفقه الإسلامي: "قال تعالى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) أي جعلها كالدحية؛ وهي البيضة..، والدحية لغة هي البيضة، ولا يزال بعض أهل المغرب الأدنى إلى يومنا هذا مثل ليبيا يقولون عن البيضة: دحية"[٣٩]. وكذلك في فتاوى دار الإفتاء المصرية: "(دَحَاهَا).. دحا الأرض أي بسطها؛ أو جعلها كالدَّحيه، وهى البيضة"[٤٠].

---

[٣٥] أبو عمرو البيراوي؛ أرشيف ملتقى أهل التفسير.

[٣٦] د وهبة بن مصطفى الزحيلي؛ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر دمشق، الطبعة الثانية؛ ١٤١٨هـ (١٣٠\ ٤٧).

[٣٧] محمد بن محمد عبد اللطيف بن الخطيب؛ أوضح التفاسير، المطبعة المصرية، الطبعة السادسة، ١٣٨٣هـ - فبراير ١٩٦٤م (١\ ٧٣٢).

[٣٨] مالك بن نبي؛ الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم محمد عبد الله دراز ومحمود محمد شاكر، دار الفكر المعاصر بيروت، الطبعة الرابعة؛ ١٩٨٧ (ص٢٨٦).

[٣٩] مجلة مجمع الفقه الإسلامي، أعدها للشاملة: أسامة بن الزهراء، رقم الجزء في الشاملة هو رقم العدد (١٢\ ٧١٨).

[٤٠] فتاوى دار الإفتاء المصرية، المكتبة الشاملة (١٠\ ٣٦٣).

وقال الدكتور فاضل السامرائي: "{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}؛ عندما ننظر في لسان العرب نجد أن الدحو له عدة معاني، الدحو بمعنى البسط؛ يقول بسطها للسكان، وهي فعلاً مبسوطة للسكان مُنبسطة، ومن معاني الدحو غير الإنبساط تهدّل بطن الرجل بحيث يصبح بيضي الشكل، الشكل ليس على شكل كرة؛ ومنه ما تصنعه النعامة لبيضها في الرمل تحفر حفرة بيضية الشكل تحتوي بيضتها، ففيها معنى البيضية، يُقال هذا شكل بيضي الشكل لا بيضاوي نسبة إلى البيضة، ولا يوجد بيضاوي في العربية، فلما يثبت الآن أن الأرض بهيئة بيضة تقريباً ليست كرة، وإنما فيها امتداد إلى القطبين؛ فهي أقرب إلى صورة البيضة، فهي أقرب إلى صورة الدحو؛ سواء نزول البطن أو دحو النعامة لبيضتها، نستطيع أن نقول أن هذه اللفظة تسعفنا في أن نقول أن القرآن الكريم أشار إلى هذا"[41]، و"كوكب الأرض.. بيضوي، قال الله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}، والدِّحْيَة هي بيضة النعامة، فالآية الكريمة إذن حددت لا كروية الأرض؛ بل حددت بيضويتها، وهذا ما أثبتته يقينًا الصُّور المُلتقطة من الأقمار الصناعية"[42].

ولكن الصورة البيانية أعمق دلالة من الاكتفاء بانتزاع تشبيه الأرض بالبيضة من حيث الاستدارة وطبقية التكوين، والتحقيق أن فعل الدحو في لسان العرب زمن الوحي هو ما تصنع النعامة من تمهيد الأرض لتضع البيض كي تنشأ حياة، قال ابن منظور: "الأُدْحِيُّ والإِدْحِيُّ والأُدْحِيَّة والإِدْحِيَّة والأُدْحُوَّة: مَبِيض النَّعَامِ فِي الرَّمْلِ..؛ لأَن النَّعَامَةَ تَدْحُوه بِرِجْلها ثُمَّ تَبِيض فِيهِ، وَلَيْسَ لِلنَّعَامِ عُشٌّ، ومَدْحَى النَّعَامِ: مَوْضِعُ بَيْضِهَا، وأُدْحِيُّها: مَوْضِعُهَا الَّذِي تُفَرِّخ فِيهِ"[43]،

وقال الشنقيطي: "قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)؛ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَصْفُ الْأَرْضِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى (دَحَاهَا) ٧٩النازعات:٣٠، وَجَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ (طَحَاهَا) ٩١الشمس:٦؛ بِالطَّاءِ، وَجَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ بَسَطَهَا؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) ٨٨الغاشية:٢٠، وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: (دَحَاهَا)، فَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: تَفْسِيرُهُ مَا بَعْدَهُ: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) ٧٩النازعات:٣١و٣٢، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ..، وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: (دَحَاهَا) بَسَطَهَا وَمَهَّدَهَا لِلسُّكْنَى وَالِاسْتِقْرَارِ عَلَيْهَا؛ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ التَّمْهِيدَ بِمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ إِخْرَاجِ الْمَاءِ وَالْمَرْعَى وَإِرْسَائِهَا بِالْجِبَالِ..، وَقَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ وَابْنِ كَثِيرٍ: إِنَّ (دَحَاهَا) فُسِّرَ بِمَا بَعْدَهُ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْبَسْطِ وَالتَّمْهِيدِ، كَمَا قَالَ أَبُو حَيَّانَ: إِنَّهُ ذَكَرَ لَوَازِمَ.. الْمَعِيشَةِ عَلَيْهَا مِنْ إِخْرَاجِ مَائِهَا وَمَرْعَاهَا؛ لِأَنَّ بِهِمَا قِوَامَ الْحَيَاةِ..، وَقَدْ أُثِيرَ حَوْلَ هَذِهِ الْآيَةِ مَبْحَثُ شَكْلِ الْأَرْضِ أَمَبْسُوطَةٌ هِيَ أَمْ كُرَوِيَّةٌ مُسْتَدِيرَةٌ؟..، وَفِي مُعْجَمِ مَقَايِيسِ اللُّغَةِ، مَادَّةُ دَحْوٍ: الدَّالُ وَالْحَاءُ وَالْوَاوُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى بَسْطٍ وَتَمْهِيدٍ..، يُقَالُ..: دَحَا الْمَطَرُ الْحَصَى عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، وَهَذَا لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ مَهَّدَ الْأَرْضَ..، وَمِنَ الْبَابِ أُدْحِيُّ النَّعَامِ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُفَرِّخُ فِيهِ..، لِأَنَّهُ يَدْحُوهُ بِرِجْلِهِ ثُمَّ يَبِيضُ فِيهِ، وَلَيْسَ لِلنَّعَامَةِ عُشٌّ..، وَقَالَ الْفَرَّاءُ.. الْأُدْحِيَّ مَبْيَضَ النَّعَامِ فِي الرَّمْلِ؛ لِأَنَّ النَّعَامَةَ تَدْحُوهُ بِرِجْلِهَا ثُمَّ تَبِيضُ فِيهِ..، وَبِتَأَمُّلِ قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ نَجِدُهَا مُتَّفِقَةً فِي مَجْمُوعِهَا: بِأَنَّ (دَحَاهَا) مَهَّدَهَا وَسَهَّلَ الْحَيَاةَ عَلَيْهَا، وَذَكَرَ لَوَازِمَ التَّمْكِينِ مِنَ الْحَيَاةِ عَلَيْهَا مِنْ إِخْرَاجِ الْمَاءِ وَالْمَرْعَى وَوَضْعِ الْجِبَالِ، وَهُوَ الْمُتَّفَقُ مَعَ نُصُوصِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) ٧٨النبأ:٦و٧، وَقَوْلِهِ: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) ٦٧الملك:١٥، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ؛ وَهُوَ تَمْهِيدُهَا وَالتَّمْكِينُ لِلْعَيْشِ عَلَيْهَا، وَلَيْسَ فِيهِ مَعْنَى التَّكْوِيرِ وَالِاسْتِدَارَةِ، وَإِذَا جِئْنَا إِلَى كُتُبِ اللُّغَةِ نَجِدُهَا كُلَّهَا.. تُفَسِّرُ (دَحَاهَا) بِمَعْنَى بَسَطَهَا وَمَهَّدَهَا، وَأَنَّ الْأُدْحِيَّةَ مَبْيَضُ النَّعَامِ لَا بَيْضُهُ كَمَا يَقُولُونَ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَدْحُوهُ بِيَدِهَا لِتَبِيضَ فِيهِ؛ إِذْ لَا عُشَّ لَهَا، وَعَلَيْهِ فَلَا دَلِيلَ مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ عَلَى أَنَّ الدَّحْوَ هُوَ التَّكْوِيرُ"[44].

وقال ابن كثير: "(وَالأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)..، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {دَحَاهَا}..: دَحْيها أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى..؛ وَجَعَلَ فِيهَا الْجِبَالَ وَالرِّمَالَ وَالسُّبُلَ..، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: (وَالأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)"[45].

وقال المغامسي: "لم يقل: والأرض بعد ذلك خلقها؛ لأنه تعالى خلقها من قبل.. غير منتهية..؛ ثم أكمل خلقها"[46].

---

[41] الدكتور فاضل صالح السامرائي؛ لمسات بيانية (١٥١\ ٣٨).

[42] الدكتور فاضل صالح السامرائي؛ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، محاضرات بترقيم الشاملة (ص١٠٧٧).

[43] محمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين ابن منظور؛ لسان العرب، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤١٤هـ (١٤\ ٢٥١).

[44] محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي؛ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت؛ ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م (٨\ ٤٢٢).

[45] أبو الفداء إسماعيل بن كثير؛ تفسير بن كثير، المحقق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية؛ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ (٨\ ٣١٦).

[46] أبو هاشم صالح بن عوّاد المغامسي؛ تأملات قرآنية، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، ترقيم المكتبة الشاملة، ورقم الجزء هو رقم الدرس (١\ ٢٥).

وقال المراغي: "(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا): أي مَهَّدَهَا وجعلها قابلة للسُّكنى..، وهيأ فيها وسائل المعيشة للإنسان والحيوان، فأخرج منها الماء الذي به حياة كل شيء وأنبت فيها النبات الذي به قوام الإنسان والحيوان..، أي ومهد الأرض بعد ذلك وبسطها للسكنى وسير الناس والأنعام عليها، وقد كانت مخلوقة غير مدحوّة (غير مُمهدة) قبل ذلك..، والآية.. تشير إلى أن الله تعالى دحا الأرض ومهدها لسُكنى الناس بعد أن خلق السماء (الكونية)..، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتى سُكناها من أمر المآكل والمشارب وإمكان القرار عليها فقال: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا).. أي.. وأنبت فيها النبات سواء أكان قوتا لبنى آدم كالحب والثمر، أم قوتا للأنعام والماشية كالعشب والحشيش، (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) أي وثبت الجبال.. وجعلها كالأوتاد لئلا تميد بأهلها وتضطرب بهم"[٤٧].

وقال القطان: "(والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا).. مهّدها للسُّكنى وسيّر الناسَ والأنعام عليها، فلفظةُ (دَحَاهَا) تعني التكويرَ والبسطَ في ذات الوقت..، ثم بيّن ما لا بدّ منه في تأتّي سكناها من أمرِ المآكل والمشارِب وإمكان القرار عليها فقال: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا}.. ثم بعد ذلك ثبَّتَ الجبالَ في أماكنها وجعلَها كالأوتاد؛ حتى تحفظَ توازُن الأرض"[٤٨].

وقال الرازي: "إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا وَصَفَ كَيْفِيَّةَ خَلْقِ السَّمَاءِ أَتْبَعَهُ بِكَيْفِيَّةِ خَلْقِ الْأَرْضِ.. قوله تعالى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحاها).. وَأَدْحَى النَّعَامَةُ.. أي بسطته وأزالت مَا فِيهِ مِنْ حَصَى حَتَّى يَتَمَهَّدَ..، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْنَى الدَّحْوِ يَرْجِعُ إِلَى.. التَّمْهِيدِ..، (و) ظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي كَوْنَ الْأَرْضِ بَعْدَ السَّمَاءِ..، (و) لَا يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ دَحاها: مُجَرَّدَ الْبَسْطِ؛ بَلْ يَكُونُ الْمُرَادُ أَنَّهُ بَسَطَهَا بَسْطًا مُهَيَّأً لِنَبَاتِ الْأَقْوَاتِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: (أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها) (وبهذا) يَكُونَ مَعْنَى دَحَاهَا.. مَهَّدَهَا لِلسُّكْنَى، ثُمَّ فَسَّرَ التَّمْهِيدَ بِمَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي تَأَتِّي سُكْنَاهَا مِنْ تَسْوِيَةِ أَمْرِ الْمَشَارِبِ وَالْمَآكِلِ وَإِمْكَانِ الْقَرَارِ عَلَيْهَا بِإِخْرَاجِ الْمَاءِ وَالْمَرْعَى وَإِرْسَاءِ الْجِبَالِ وَإِثْبَاتِهَا أَوْتَادًا لَهَا حَتَّى تَسْتَقِرَّ وَيُسْتَقَرَّ عَلَيْهَا..، وَالتَّقْدِيرُ: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) حَالَ مَا (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)..، فَانْظُرْ كَيْفَ دَلَّ بِقَوْلِهِ: (ماءَها وَمَرْعاها) عَلَى جَمِيعِ مَا أَخْرَجَهُ مِنَ الْأَرْضِ قُوتًا وَمَتَاعًا لِلْأَنَامِ مِنَ الْعُشْبِ وَالشَّجَرِ وَالْحَبِّ وَالثَّمَرِ..، ثُمَّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَرَادَ بِالْمَرْعَى كُلَّ مَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ قَوْلُهُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْآيَةِ: (مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ) وَاعْلَمْ.. أَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا ذَكَرَ كَيْفِيَّةَ خَلْقِهِ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ؛ لِيُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَى الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ"[٤٩].

---

[٤٧] أحمد مصطفى المراغي؛ تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م (١٣٠\ ٢٩).

[٤٨] إبراهيم القطان؛ تيسير التفسير، المكتبة الشاملة (١٣\ ٤٠٥).

[٤٩] فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (١٣١\ ٤٢).

وإذن: كلمة (دَحَاهَا) تعبير تصويري جامع لكل أطوار خلق الأرض؛ يستحضر مشهد نعامة على وشك وضع البيض، ووجه الشبه هو التمهيد، والتمثيل يُجمل كل لوازم التمهيد؛ من تحول كتلة هباء منثور لتصبح كالبيضة مُستديرة ذات طبقات؛ وحتى سحق الجبال النارية بعوامل التعرية، وبسط الفُتات فوقها كالفراش ثَرًى لينًا؛ تمهيدًا لنشأة الحياة والوعي في الأرض.

وفي سياق بيان التقدير والاقتدار تُلَمِّح أغوار التمثيل لعوالم عاقلة كالأرض؛ فالنعامة لا تكتفي بإنتاج بيضة واحدة، وفي التعبير: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ الشورى: ٢٩؛ كلمة (فِيهِمَا) تثنية ولا تحتمل التأويل وتعني صريحًا وجود أجناس من الأحياء تدب على أسطح كواكبها في السماوات كما ندب نحن ومواشينا على سطح الأرض، ولا يمكن صرف كلمة (دَابَّةٍ) عن ظاهرها في الدلالة على كائنات ذات أعضاء للحركة سواء منها العاقل أو غير العاقل، ولا يُمكن صرفه إلى الملائكة لأنها من المعنويات؛ لا الحسيات كما الدواب، خاصة مع التمييز بينهما: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل: ٤٩، قال ابن عاشور: "فِي السَّماواتِ (إذن) مَخْلُوقَاتٍ (عاقلة) غَيْرَ الْمَلَائِكَةِ"[٥٠].

[٥٠] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١٤\١٦٨).

(ج) تمهيد الأرض للحياة:

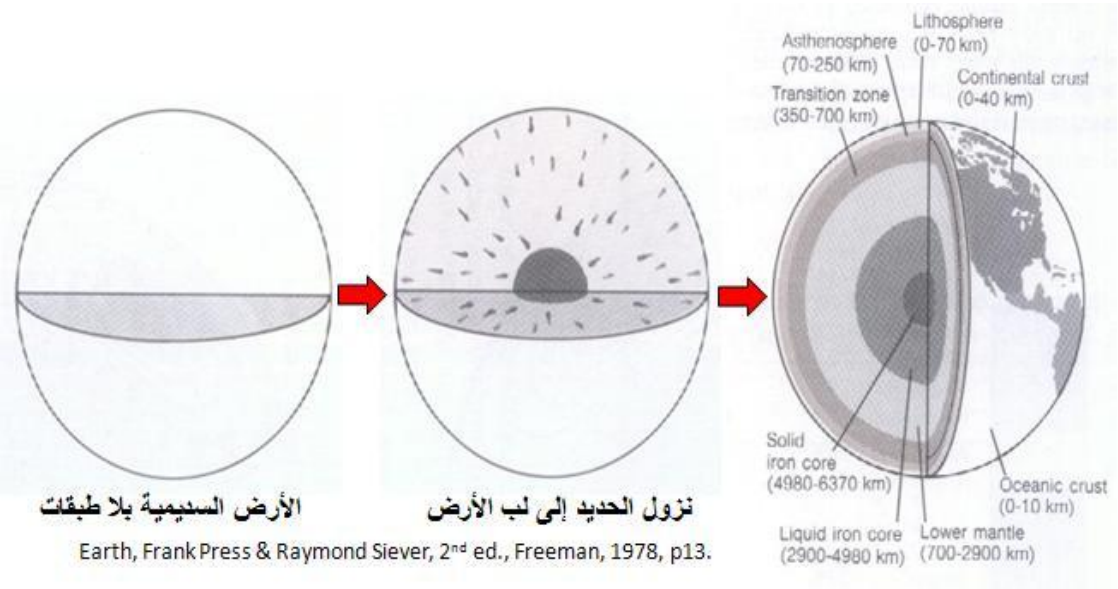

نشأة الأرض؛ كما يرويها الجيولوجيان فرانك بريس frank Press وريموند سييفر Raymond Siever في كتابهما: الأرض Earth؛ أنها كانت كتلة متجانسة بلا طبقات، ومع خروج المواد الأخف والماء خاصة باتجاه السطح ونزول المواد الأثقل؛ خاصةً الحديد ليكون مُعظم لب الأرض، نشأت الطبقات[٥١]، وقد أورد القرآن الكريم قصة الخلق بنفس الترتيب كما ترويه حقائق علوم الأرض في الوقت الحاضر، وجاء وصف تكون الماء كأحد الفصول خلال مراحل مقدرة الترتيب، قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ النازعات ٣٠-٣٢، وفي المُقابل نزل الحديد عند التكوين نحو اللب لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ الحديد ٢٥.

وقوله تعالى (أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا) تعبير بالمآل، ويعني أن كل ما يُنسب إليها اليوم من نباتات المراعي التي تتغذى عليها المواشي وكل ما يُنسب إليها من ماء بكل أشكاله قد خرج أساسًا منها عند بدء تشكلها، والمعلوم حاليا بالفعل أن الكوكب كان ملتهبا قبل أن تكون سطحه وأن بخار الماء الخارج مع الانبعاثات البركانية النشطة كان عالقًا بالجو الأولي ولم يتمكن من النزول حتى برد السطح فاستمر هطول الأمطار حقبًا حتى تكونت كافة أشكال المياه، ومَهَّدَ الماء لنشأة النبات الذي أطلق الأوكسجين بالجو وقلل من ثاني أكسيد الكربون فمكن لنشأة الحيوان والإنسان من بعد، وتُلاحظ في التعبير ترتيبا لمراحل تكون الحياة ابتداءً من الماء تلته نباتات المراعي الخضراء كمثال لكافة أشكال النبات.

قال ابن عاشور: "المرعى.. مصدر.. أُطلق على المفعول؛ كالخلق بمعنى المخلوق، أي أخرج منها ما يُرعى، والرعي حقيقته تناول الماشية الكلأ..، فالاقتصار على المرعى اكتفاء عن ذكر ما تُخرجه الأرض من الثمار والحبوب؛ لأن ذكر المرعى يدل على لطف الله بالعجماوات، فيعرف منه أن اللطف بالإنسان أحرى..، والقرينة على الاكتفاء قوله تعالى بعده: (متاعا لكم ولأنعامكم)"[٥٢]، وقال سيد قطب: "وإرساء الجبال وهو نتيجة لاستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارته (المرتفعة ابتداءً) إلى هذا الاعتدال؛ الذي يسمح بالحياة، والله تعالى أخرج من الأرض ماءها، (يعني) سواء ما يتفجر من الينابيع أو ما ينزل من السماء فهو أصلاً من مائها الذي تبخر ثم نزل في صورة مطر، وأخرج من الأرض مرعاها؛ وهو النبات الذي يأكله الناس والأنعام وتعيش عليه الأحياء"[٥٣].

---

٥١ Earth, Frank Press & Raymond Siever, 2nd ed., Freeman, 1978, p13 & 17.

٥٢ التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور المتوفى سنة ١٣٩٣هـ (ج ١ / ص ٤٧١٧).

٥٣ في ظلال القرآن لسيد قطب المتوفى سنة ١٣٨٦ هـ (ج ٧ / ص ٤٤٦).

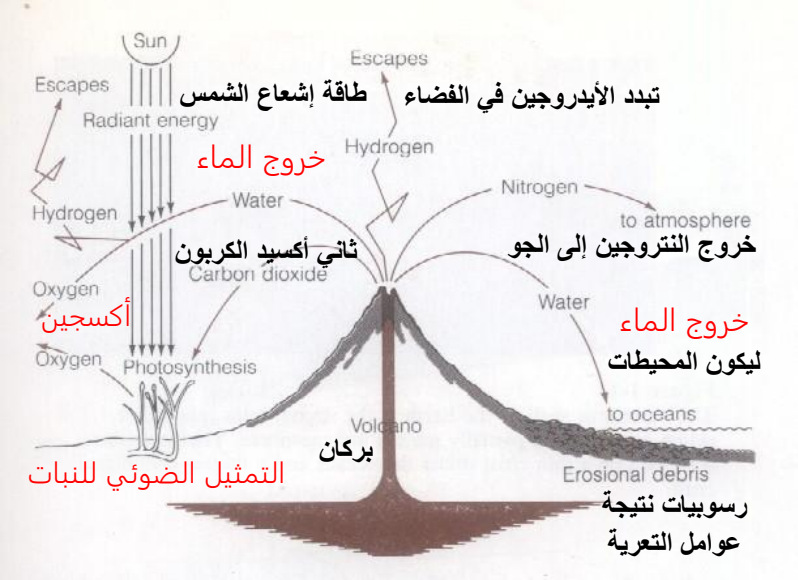

خروج الماء والغازات من البراكين الأولية العملاقة وتكون المحيطات والغلاف الجوي والرسوبيات والتمهيد للتمثيل الضوئي للنباتات.

Earth, frank Press & Raymond Siever, 2nd ed., Freeman, 1978, p 17.

وأصل المياه على سطح الأرض هو ما خرج من باطنها من مواد خفيفة عند نشأتها وخلال الثورات البركانية العنيفة عند نشأة سطحها[٥٤]، قال الجيولوجي د. زغلول النجار: "الشواهد العديدة التي تجمعت لدي العلماء تؤكد أن كل ماء الأرض قد أُخرج أصلا من جوفها، ولا يزال خروجه مُستمرا من داخل الأرض عبر الثورات البركانية..، (و) بتحليل الأبخرة المتصاعدة من فوهات البراكين في أماكن مختلفة من الأرض اتضح أن بخار الماء تصل نسبته إلي أكثر من ٧٠% من مجموع تلك الغازات والأبخرة البركانية، بينما يتكون الباقي من أخلاط مُختلفة من الغازات..، (و) الصهارة الصخرية (إذن).. هي مصدر رئيسي للمياه الأرضية..، وقد ثبت أنها المصدر الرئيسي للغلاف المائي والغازي للأرض..، فقد أصبح من المقبُول عند عُلماء الأرض أن النشاط البُركاني الذي صاحب تكوين الغلاف الصخري للأرض في بدء خلقها هو المسئول عن تكون كل من غلافيها المائي والغازي"[٥٥].

وإذا تقرر بالنص الصريح أن أصل ماء الأرض قد خرج أساسًا منها؛ فلا يرد إشكالا على بيان نزول الماء من السماء في جملة آيات لأنه يتعلق بوصف مرحلة تالية في تاريخ الأرض تتفق تمامًا مع المعرفة الحديثة بأن الماء الذي خرج منها لم يتمكن من النزول مطرًا حتى هبطت درجة حرارة السطح وتميزت معالمه؛ خاصةً أن حمل تعبير (السماء) على الغلاف الجوي يستقيم وفق القرائن، وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾ البقرة٢٢؛ قال ابن عاشور: "(والسماء بناء) بكون تلك الكرة الهوائية واقية للناس من إضرار طبقات فوقها..، فالكرة الهوائية جُعلت فوق هذا العالم فهي كالبناء له.. فشبهت به..، والمُراد بالسماء هنا إطلاقها العرفي عند العرب وهو ما يبدو للناظر كالقبة الزرقاء، وهو كرة الهواء المحيط بالأرض؛ كما هو المُراد في قوله تعالى: (أو كصيب من السماء)، وهذا هو المُراد الغالب..، وأما وجه شبه السماء بالبناء فهو أن الكرة الهوائية جعلها الله حاجزة..، فهي كالبناء فيما يُراد له البناء؛ وهو الوقاية من الأضرار النازلة..، وهذا كقوله تعالى..: (وجعلنا السماء سقفا محفوظا)"[٥٦]، وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الأنعام ٩٩؛ قال: "(من) في قوله تعالى (من السماء) ابتدائية؛ لأن ماء المطر يتكون في طبقات الجو.. عند تصاعد البخار الأرضي إليها؛ فيصير البخار كثيفًا وهو السحاب، ثم يستحيل ماء، فالسماء (هنا).. الجو حيث تتكون الأمطار"[٥٧]، وهكذا يعبر النظم عن الحقائق الخفية زمن التنزيل بعبارة لا تلفت عن غرض ولا يفوت مضمونها عند اكتشاف الحقائق.

---

٥٤ **Earth, frank Press & Raymond Siever, 2nd ed., Freeman, 1978, p 17.**

٥٥ الموقع الرسمي للدكتور زغلول النجار؛ والنص نقله عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش في تفسيره: الحَاوى في تَفْسِير القُرْآن الْكَرِيم، دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ (٨٠٠\ ٢٧٠).

٥٦ التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور المتوفى سنة ١٣٩٣هـ (ج ١ / ص ١٩٣).

٥٧ التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور المتوفى سنة ١٣٩٣هـ (ج ١ / ص ١٣٧٢).

(د) عوامل التعرية:

في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ ٧٩النازعات:٣٠، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ ٩١الشمس:٦؛ الحروف الأصلية في دحاها: (دَحَّ)، وفي طحاها: (طَحَّ)، وهما قريبا المخرج؛ وقالوا المعنى واحد، ولكن السياق مُختلف وتغيير الحروف يُوحي بفارق دلالي تُميزه القرائن؛ وإن كان مُؤدى كل منهما اكتمال تمهيد الأرض قبل مجيء الإنسان.

في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ ٩١الشمس:١-٤؛ كل الضمائر في (ضُحَاهَا، تَلَاهَا، جَلَّاهَا، يَغْشَاهَا) عائدة إلى الشمس، والضحى وقت النشاط اليومي للإنسان، وضوء الشمس إذن هو محور الحديث، ولذا لا يمتنع حمل (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) في الإنارة؛ أي عكس ضوء الشمس نورًا؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ١٠يونس:٥، ولكن الفضاء ظلام يغشي كل الأجرام، فالضوء لا يرى إلا أن يعكسه شيء كالقمر أو العوالق بطبقة جو الأرض المُواجهة للشمس وقت النهار؛ كصريح النبأ: (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)، والليل تمثيل لظلام يُغشي كل جرم؛ حتى الشمس مصدر الضياء؛ كصريح النبأ: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا).

وهذه الظواهر الضوئية قرينة على تكامل بناء الكون؛ تذكيرًا للإنسان بما هيأه اللهُ تعالى له قبل مجيئه للعالم، وتنويهًا بأن المشيئة العلية التي قدرت وطلاقة القدرة التي أنجزت؛ لا يشُق عليها الإعادة وبعث الإنسان للحساب، وهو مُقتضى التعقيب: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ٩١الشمس:٥-١٠، كلمات يسيرة أوجزت كل فصول قصة الخليقة ومُهمة الإنسان، والإبهام في (مَا) دل على تعظيم ما صنع القدير؛ وبالضرورة عظمته تعالى بعودة كل ضمائر أحداث الخلق إليه، وجملة: (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)؛ أوجزت وصف الكون بتمثيل السماء بالبناء العظيم المُتعدد الطوابق المُترابط الأركان، وإفراد لفظ (السَّمَاءِ) ناسب حالة تفرد Singularity عند بدء الخلق قبل أن تُشكله عناقيد النجوم لآفاق؛ سماوات طباق، وجملة: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)؛ تسويتها تكميل أدوات إدراكها وميلها الفطري للعبادة بيانًا للغرض الأخير من نشأة الوعي.

وفي سياق بيان أول فصل في قصة الخليقة؛ يستقيم بيان آخر فصل في تمهيد سطح الأرض قبل نشأة الإنسان، وفي سياق بيان تمهيد السطح مُقابل أول فصل؛ وردت كلمة (طَحَاهَا) في موضع بيان الفصل الأخير قبل نشأة الإنسان، وكأن البيان: (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)؛ قد أوجز تاريخ الكون بذكر أول وآخر حدثين لتمهيد عالم اليوم.

وما كان السطح الصخري للأرض الذي تشكل بإلقاء البراكين الحمم عند نشأته يصلح كسكن للإنسان، لكن عوامل التعرية على مر السنين جعلته أشبه في الليونة بمهاد الصبي والفراش اللين أو البساط تحت قدمه؛ وبتمهيد سطح الأرض نشأت تربة صالحة للزراعة تغمرها البحار وتشقها الأنهار ولينة للمعيشة، ولو كانت كلها قمم جبال لاستحال العيش فوقها؛ ولما وُجدت البحار والأنهار، هذه صورة للسحق والهوي؛ خلاف صورة البناء والارتفاع.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ٨٨الغاشية:١٧-٢٠؛ يتعلق الحديث بكيانات تمت آخر أحداث إيجادها على النحو المُعاين حاليًّا، فالجبال اليوم قد نصبت فاتزنت الألواح القارية بعدما كانت تميد، ومَهَّدَت عوامل التعرية السطح الصخري بالثرى، ومثله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ٢٠طه:٦، فثرى الحمأ المسنون آخر حدث، ومثله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ ٩١الشمس:٥و٦، فالنظم يتعلق ببيان اكتمال آخر حدث لخلق الكون، وهو تمهيد السطح الصخري ذو الجبال الرواسي الشامخة بسحق الصخور ونشأة تربة لينة صالحة للزراعة وشق المسالك، والسياق إذن جعل التمهيد بكلمة (طَحَاهَا) مُختص بنشأة التربة، بينما التمهيد بكلمة (دَحَاهَا) شامل لكل تاريخ الأرض.

ولا يستقيم النظم باستبدال كلمة (طَحَاهَا) بكلمة (دَحَاهَا)؛ فالسياق مُختلف وكذا البنية، ومُشتقات الحروف الأصلية (طَحَّ) وما في معناها؛ مدارها يوافق تعرية المُرتفعات الصخرية لتهبط تربة لينة مبسُوطة كالفراش، وكما استقام حمل (دَحَاهَا) على التصوير بما تصنع النعامة من تمهيد الأرض ووضع البيض لتنشأ حياة؛ كإجمال أعقبه تفصيل فصول البناء والارتفاع، يستقيم حمل (طَحَاهَا) على التصوير بما يصنع الإنسان من هرس الحصى بكعبه ليهوي تُرابًا ناعمًا.

قال الفراهيدي وكثيرين غيره: "الطَحَّ: أنْ يَضَعَ الرجلُ عَقِبَه (كعبه) على شيءٍ ثمَّ يَسْحَجُه (يسحقه) بها"[٥٨]، وقال الصاحب بن عباد: "الطَّحُّ: أنْ يَضَعَ عَقِبَه على شَيْءٍ يُسَحِّجُه بها..، والطَّحْطَحَةُ: التَّفَرُّقُ وإهْلاكُ الشَّيْءِ..، (و) الحَتُّ: فَرْكُكَ الشَّيْءَ عن الثَّوْبِ، وحُتَاتُ كُلِّ شَيءٍ: ما تَحَاتَّ منه"[٥٩]، وقال ابن القطاع: "وطحّه طحّا: بسطه فانطحّ"[٦٠]، وفي تكملة المعاجم العربية: "طحَّ: سقط.. مثل طاح يطيح..، طَحَّة: معناها اللفظي سقوط..، طحل: حثالة، ثفل، راسب"[٦١]، وقال ابن فارس: "يُقَالُ: طَحْطَحَ بِهِمْ، إِذَا بَدَّدَهُمْ"[٦٢]، وقال الأنباري: الطَّاحِي المُنضجع..، ويُقال: طحوْت الرَّجُل أَطحوه إذا صَرَعْتَه، ويُقال: ضربته حتَّى طَحَا؛ أَي انصرع..، يُقال للمُنخفض: مطحُو ومطحيّ، قال تعالى: (والأَرْضَ وما طَحَاهَا)"[٦٣].

وقال الهروي: "الطح: أن تسحج (تسحق) الشيء"[٦٤]، وفي المعجم الوسيط: "(سحجه)..: عَضَّهُ فَأَثَّرَ فِيهِ"[٦٥]، وقال ابن سيده: "سَجِيحٌ.. سَهْل، وأصلُ هَذِه الْكَلِمَة السُّهولة واللِّينُ"[٦٦]، وفي معجم اللغة العربية: "سحَج (سحق) الشَّيءَ: براه، حكَّه، خدشه وقشره، سحَج العودَ بالمبرد، سحَجتِ الريحُ الأرضَ..، انسِحاج.. مصدر..: بلى الصخور بالاحتكاك..، سَحْج: مصدر..: تآكل الصخور بفعل الفُتَات الصخريّ الذي تحمله العوامل الطبيعيّة (للتعرية)؛ كالرِّيح والماء والجليد"[٦٧].

---

[٥٨] أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن تميم الفراهيدي البصري؛ كتاب العين، تحقيق د مهدي المخزومي؛ د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال (١٨١٣).

[٥٩] إسماعيل أبو القاسم الطالقاني المشهور بالصاحب بن عباد؛ المحيط في اللغة، ترقيم الشاملة (١١ ١٥٦).

[٦٠] أبو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القَطَّاع الصقلي؛ كتاب الأفعال، عالم الكتب، الطبعة الأولى؛ ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م (١٣ ٢٦٤).

[٦١] رينهارت بيتر آن دُوزي؛ تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية محمَّد سَليم النعَيمي وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام بالعراق؛ من ١٩٧٩-٢٠٠٠م (١٧ ٢٥).

[٦٢] أحمد بن فارس القزويني؛ معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر؛ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م (١٣ ٤٠٦).

[٦٣] أبو بكر محمد بن القاسم بن دعامة الأنباري؛ الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت؛ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م (ص٣٩٤).

[٦٤] أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي (ت: ٣٧٠هـ)؛ تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي بيروت؛ ٢٠٠١م (١٣ ٢٦٧).

[٦٥] مجمع اللغة العربية بالقاهرة؛ المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة (١١ ٤١٩).

[٦٦] أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده؛ المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى؛ ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م (١١ ٢٣٧).

[٦٧] أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل؛ معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى؛ ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م (١٢ ١٠٤٠).

وإذن: مُقابل بناء ورفع السماء؛ التعبير التصويري (طَحَاهَا) يُفيد سحق وتَحَاتَّ وخفض وبسط المُرتفع وهو الجبال، وتنسجم تلك المعاني مع تأثير عوامل التعرية السطحية Sub aerial Erosion على مدى ملايين السنين؛ في تحويل مقذُوفات البراكين الأولية العملاقة التي كونت جبالاً ذات صخور نارية سوداء إلى حُتَات Debris ورواسب كونت التربة، وبهذا قد أجمل التعبير التصويري (طَحَاهَا) عدة أحداث جيولوجية بكلمة واحدة، جمعت معنى تفتيت الصخور ونقل الفُتات وترسيبه؛ وهو نفس التعريف العلمي لمُصطلح التعرية وفق ما ورد في الموسوعة العالمية: "التعرية أو النحت أو التَحَاتَّ.. تفتيت الصخور مع نقل هذا الفُتات وترسيبه..، وتمتد عملية التعرية.. على امتداد آلاف؛ بل ملايين السنين"[٦٨].

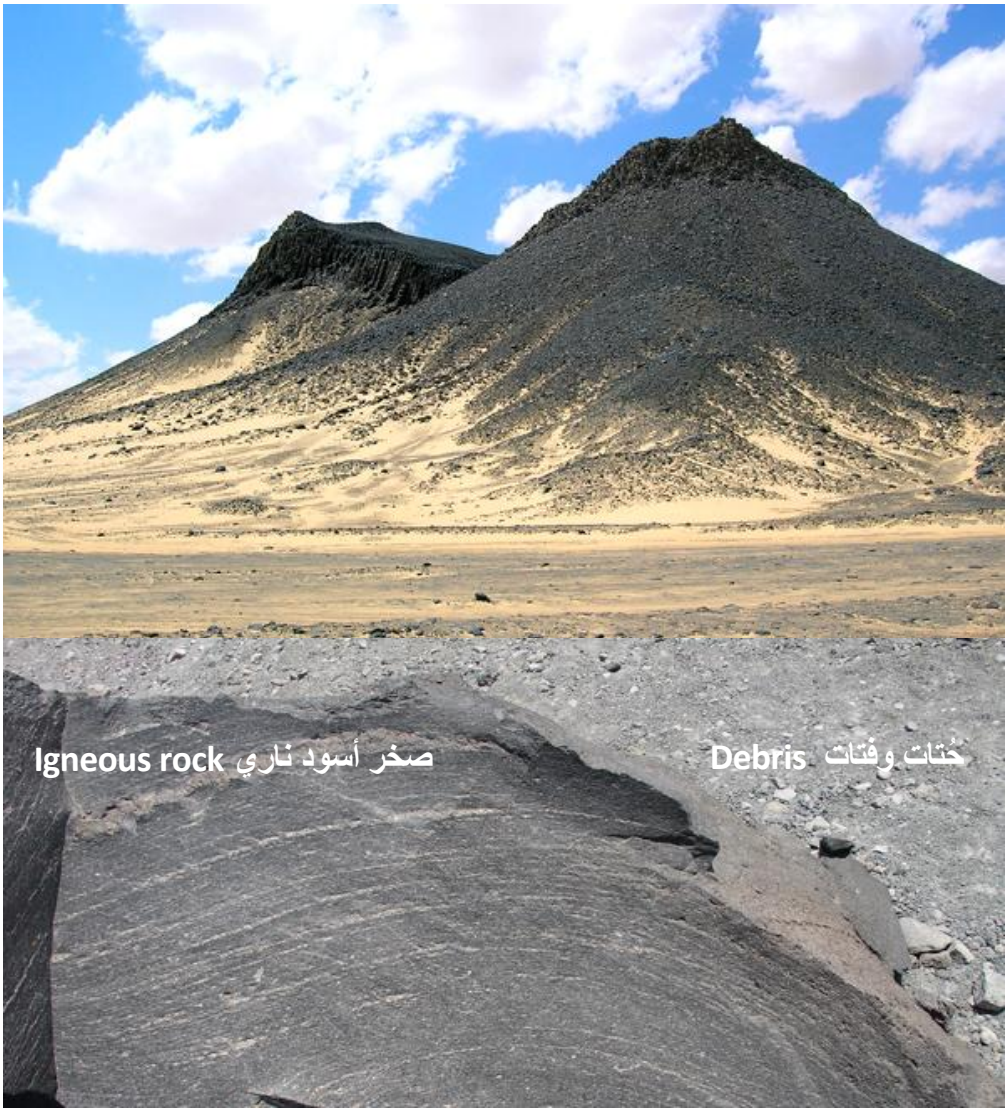

وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ٥٥الرحمن:١٤، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ١٥الحجر:٢٦؛ قال الماوردي: "المسنُون: الذي يحك بعضه بعضًا؛ من قولهم سننت الحجر على الحجر إذا حككت أحدهما بالآخر (فيتحول لفُتَات)، ومنه سُمي المسَنّ لأن الحديد يُسن عليه؛ قاله الفراء"[٦٩]، والصلصال طين مُلون؛ أشبه بالفخار المصنوع من طين أسود مطبوخ بالنار، وفي معنى الحمأ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ١٨الكهف:٨٦، وفي قراءة حامية؛ أي وجدها في مرأى العين تغرب في مُحيط كأنه الأطلسي، حيث يُخبر تعالى أن قاعه ذو صدع عظيم يطرح حممًا تتحول بالبرودة لصخر أسود ناري Igneous rock، وبطحن الصخور النارية تتكون كتل رسوبية ومتحولة مُختلفة الألوان، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ٣٥فاطر:٢٧، قال الماوردي: "الغرابيب: الشديد السواد؛ الذي لونه كلون الغراب..، المُراد بالغرابيب السُود.. الجبال السُود؛ قاله السدي"[٧٠].

---

[٦٨] الموسوعة العالمية ويكيبيديا العربية.

[٦٩] الماوردي؛ النكت والعيون، تحقيق السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت (١٣ ١٥٧).

[٧٠] الماوردي؛ النكت والعيون، تحقيق السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت (١٤ ٤٧٠).

(٤) تاريخ الغلاف الجوي

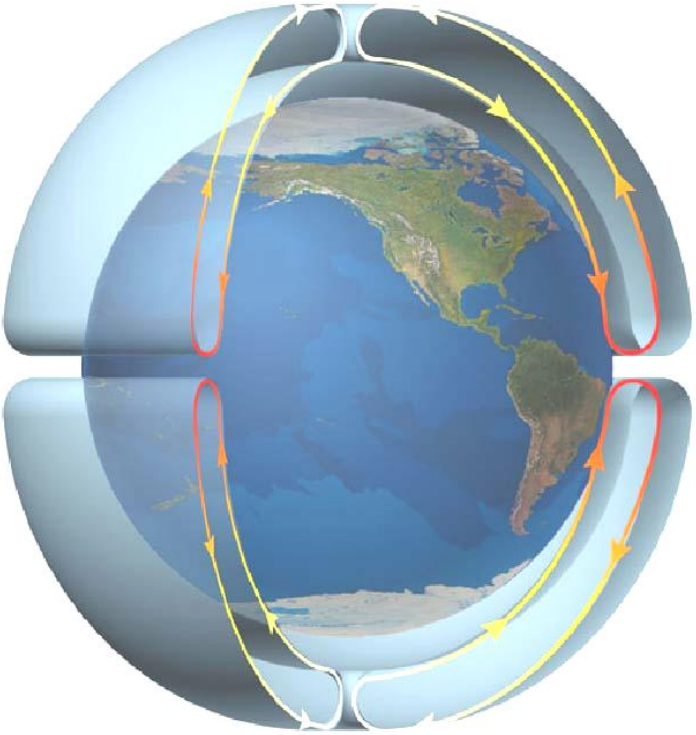

الدورة العامة للرياح حول الأرض.

(أ) حو السماء:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ ١٦النحل:٧٩؛ ورد تعبير (جَوِّ السَّمَاءِ) بيانًا لموضع سباحة الطيور، ومعناه: الجو من السماء، فميز بين سماء محلية مُلاصقة للأرض سماها الجو وتختص بوجود هواء تسبح فيه الطيور؛ وسماء تعلوها تخلو من الهواء وتشمل كل فضاء الأجرام الفلكية، قال الطبري: "(فِي جَوِّ السَّمَاءِ) يَعْنِي: فِي هَوَاءِ السَّمَاءِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ"[٧١]، وقال القدومي: "يُنكر اللهُ على الكفار تعاميهم عن آية عظيمة..، وهي آية طيران الطيور التي تُحلق في السماء وترتفع.. في الجو، ولولا حفظ الله لهذه الطيور لسقطت، ولكنها محفوظة لما أودعه الله سبحانه في هذه الطيور..؛ (و) في عناصر هذا الجو من خصائص"[٧٢].

وكلمة (السَّمَاءُ) جمعًا وإفرادًا قد ترد في مقام التوجيه إلى النظر في العالم؛ أو بيان ما يبدو وفق الرؤية الظاهرية نحو: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ١٨الكهف:٨٦، وقد ترد كلمة (السَّمَاءُ) في مقام بيان ترتيب أحداث خلق كوكبنا لاحقةً بكلمة (الأَرْض) وتابعةً لها؛ لتنطبق على المنطقة بين الفضاء والأرض والمُميزة بوجود الهواء بحيث تسري تيارات الرياح في منظومات؛ وبهذا يُسخر السحاب لينتقل لأرض عطشى تنتظر المطر: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ٢البقرة:١٦٤، ولم يرد التعبير عن الجو بلفظ (بَيْنَهُمَا) إلا لاحقًا بالأرض في النظم تابعًا لها بترتيب الخلق؛ ليعني أن الغلاف الجوي ناشئًا منها تابعًا لها لاحقًا بها في سيرها: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ٢٥الفرقان:٥٩، والترتيب مؤكد في ٢٠ موضعًا بلا استثناء، وضمير: (بَيْنَهُمَا) عائد قطعًا على مثنى؛ وليس في النظم إلا رُكني العالم الحسي: (السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، قال الشعراوي: "{وَمَا بَيْنَهُمَآ} أي: من هواء..، وكانوا لا يعرفون ما نعرفه الآن..؛ ففي جَوِّ السماء: (أي) فيما بين السماء والأرض"[٧٣].

---

[٧١] محمد بن جرير الطبري؛ جامع البيان، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى؛ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م (١٤\ ٣١٦).

[٧٢] سامي وديع عبد الفتاح شحادة القدومي؛ التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، دار الوضاح عمان الأردن؛ بترقيم الشاملة (ص١٥٩).

[٧٣] محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي (الخواطر)، مطابع أخبار اليوم؛ ١٩٩٧م (ص٢٩٢٧).

وفي مواضع يرد لفظ الأرض وحده بإجمال شاملاً الجسم الصلب للكوكب وغلافه الغازي والمغناطيسي المُحيطان به نحو: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ٦الأنعام:٧٣؛ قرينة على أن الجو من مُكونات الأرض، فالإنسان وإن كان على سطحها؛ فهو (فِي الأَرْضِ) في قاع مُحيط الهواء، باعتبار أن الغلاف الجوي فوقه تابع للأرض ومُلحق بها نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ وَلَكُمْ فِي الأرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتَاعٌ إِلَىَ حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ الأعراف ٢٤و٢٥، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ٤٢الشورى:٣١.

(ب) السماء الدنيا:

في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى .الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ طه ٤-٦؛ لفظ (الْعُلَى) جمع العليا تأنيث (الأعلى) فأفاد وجود غيرها تماثلها في طبقية التكوين، وهو ما يتفق مع تشكل الفضاء لطبقات تُميزها بروج الأجرام وتشكل الجو بالمثل إلى طبقات، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ الصافات ٦؛ لفظ (الدنيا) تأنيث (الأدنى)، وهو من (الدنو) بمعنى القرب، أو الدناءة والسفلية فتعني أنها الأسفل، ولذا يدل تعبير (السماء الدنيا) هنا على الطبقة الأسفل من آفاق الأجرام، فيصح حمل تعبير (السماء الدنيا) على الجو عند الإطلاق؛ وعلى الأفق الأدنى من آفاق الأجرام عند التخصيص بالكواكب.

وفي الغلاف الجوي تتوهَّج الشهب كالمصابيح كما في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ فصلت١٢، وهي تمثل خطراً على كل عابر لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ الملك:٥، وقد توصل المُحققون إلى أن الأجسام المُلتهبة التي شُبهت بالمصابيح ويُمكنها الإضرار بالعابرين لكونها نارية؛ ليست إلا الشهب وهي ظاهرة محلية تحدث في جو الأرض وتلوح كالسهام مُنقضة ومُضيئة كالمصابيح في ظلمة الليل، قال الشوكاني: "وَالْمَصَابِيحُ: جَمْعُ مِصْبَاحٍ وَهُوَ السِّرَاجُ..، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ ٦٧الملك:٥، أَيْ: وَجَعَلْنَا الْمَصَابِيحَ رُجُومًا يُرْجَمُ بِهَا الشَّيَاطِينُ..، الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: (وَجَعَلْنَاها) رَاجِعٌ إِلَى الْمَصَابِيحِ.. أَيْ: شُهُبَهَا؛ وَهِيَ نَارُهَا..، لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ٣٧الصافات:٦-١٠"[٧٤]، "وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: يُرْمَوْنَ بِشُعْلَةٍ مِنْ نَارِ الْهَوَاءِ؛ فَيُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّهُ نَجْمٌ يَسْرِي"[٧٥]، وقال الثعالبي: "ومعنى (السَّماءَ الدُّنْيا) أي: القريبةُ مِنَ الناسِ..، فهي.. تَلُوحُ فِيها..، فالسَّماء الدُّنْيَا مُزَيَّنَةٌ بها"[٧٦]، والقول إذن بأن النجوم هي السماء الدنيا باعتبارها المصابيح وبقية السماوات غيب؛ يرده الأمر بالنظر في كل السماوات: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ١٠يونس:١٠١، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ٧الأعراف:١٨٥.

---

[٧٤] محمد بن علي الشوكاني؛ فتح القدير، دار ابن كثير دمشق، الطبعة الأولى؛ ١٤١٤هـ (٥\ ٣١٠).

[٧٥] محمد بن علي الشوكاني؛ فتح القدير، دار ابن كثير دمشق، الطبعة الأولى؛ ١٤١٤هـ (٣\ ١٥١).

[٧٦] أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي؛ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق محمد معوض وعادل عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي بيروت؛ ١٤١٨هـ (٥\ ٤٥٨).

قال الألوسي: "(وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ): أي يُرمون ويُرجمون مِنْ كُلِّ جانِبٍ من جوانب السماء؛ إذا قصدوا الصعود إليها..، (شِهابٌ) هو في الأصل الشُّعلة السَّاطعة من النار المُوقدة، والمُراد به العارض المعروف في الجو؛ الذي يُرى كأنه كوكب مُنقض من السماء، (ثاقِبٌ) مضيء كما قال الحسن وقتادة كأنه ثقب الجو بضوئه..، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد؛ الثاقب: المُتوقد..، وأخرج عن السدي؛ الثاقب: المُحرق، وليست الشهب نفس الكواكب التي زُينت بها السماء، فإنها لا تنقض وإلا لانتقصت زينة السماء؛ بل لم تبق، على أن المُنقض.. يُرمي به الخاطف فيُرى لسرعة الحركة كرمح من نار..، (ولو كانت هي الكواكب) فيلزم أن تكون الأرض اليوم مغشية بإجرام الكواكب، والمُشاهدة تكذب ذلك؛ بل لم نسمع بوقوع جرم كوكب أصلا..، (ولكن) الشهب تصل إلى محل قريب من الأرض..، (يعني) إذا وصل (الشهاب) إلى محل مخصوص من الجو.. يشتعل..، (لأنه) يقبل.. الإحراق في الهواء..، و(هذا) لا ينافي.. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ ٦٧الملك:٥..، (لأن) الشهب شُعل نارية..، (ولذا) قيل: يجوز أن تكون المصابيح هي الشهب؛ وهي غير الكواكب..، وقيل: يجوز أن يراد بالسماء جهة العلو، وهي مزينة بالمصابيح.. (أي) الشهب كما هي مزينة بالكواكب..، وقد يُقال: إن في السماء كواكب صغارا جدا غير مرئية ولو بالأرصاد لغاية الصغر وهي التي يُرمي بها أنفسها"[٧٧]، و"إطلاق الرجوم على النجوم وقولهم: رُمِيَ بالنجم؛ يحتمل أن يكون مبينا على الظاهر للرائي، كما في قوله تعالى في الشمس: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ١٨الكهف:٨٦..، إن هذه الشهب ليست هي الثوابت..؛ وإلا ظهر نقصان كثير في أعدادها..، بل هي جنس آخر غيرها يحدثها الله تعالى ويجعلها رجومًا للشياطين، ولا يأباه قوله تعالى: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ).. حيث أفاد أن تلك المصابيح هي الرجوم بأعيانها، لأنا نقول: كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض..، والشهاب من هذا القسم وحينئذ يزول الإشكال"[٧٨].

وبخلاف عناقيد النجوم المُمكنة الرؤية والتي ميزت فضاء الكون إلى آفاق وسموات متزايدة في العلو طباق؛ الطبقات الجوية لا تُمَيَّزها العين، فساغ عودة ضمير الجمع المؤنث (فَسَوّاهُنّ) على غير مذكور سابق في قوله تعالى: (هُوَ الّذِي خَلَقَ لَكُمْ مّا فِي الأرْضِ جَمِيعاً ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) البقرة:٢٩، ومثله ضمير (فَقَضَاهُنّ) في قوله تعالى: (فَقَضَاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) ٤١فصلت:١٢؛ عائد أيضًا على غير مذكور سابق، واللائق في مقام خلق الأرض مجاراة الترتيب بحمل السماء بالجمع على طبقات الجو بعد التسوية؛ وبالإفراد على الدخان.

قال الماوردي أنه: "الدخان الذي جعله الله للأرض سماء"[٧٩]، وقال ابن كثير: "قَالَ مُجَاهِدٌ.. لَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}"[٨٠]، وكأنهم رحمهم الله تعالى قد فسروا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ ٢البقرة:٢٩، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ٤١فصلت:١١و١٢، وكليهما بعد اكتمال خلق الأرض، وبهذا تُحفظ للأداة (ثم) دلالتها على ترتيب الأحداث؛ وبالتمييز بين السماء السابقة للأرض في النَّظم والتي تلحق بها؛ يُزول نهائيًّا إشكال أسبقية تكوين الأرض أم السماء؟، قال ابن عاشور: "والسماء إن أُريد بها الجو المُحيط بالكرة الأرضية؛ فهو تابع لها (في النظم) مُتأخر عن خلقها، وإن أُريد بها (آفاق السَّمَاوَات العُلَى فهي).. أعظم من الأرض فتكون أسبق خلقًا"[٨١]؛ وبهذا التمييز يتجلى الإنباء بالغيب.

وينبغي إذن تمييز دلالة لفظ السماوات تبعًا للسياق؛ بين السماوات الكونية وبين طبقات الجو حيث الهواء والسحاب المسخر بين السماء والأرض، أي جو السماء والمُشكل طبقات بحيث يستقيم وصفه بالجمع سماوات، وكذلك بين سماوات المعراج وهي غيب لا مجال للخوض فيه؛ إذ الأسلم في الغيبيات هو التفويض لعلام الغيوب، وبين سموات الكون المأمور بالنظر إليها للاعتبار بآياتها وتبين صدق الإنباء بالغيب: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ ٧الأعراف:١٨٥.

---

[٧٧] شهاب الدين محمود الألوسي؛ روح المعاني، المحقق علي عبد الباري، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى؛ ١٤١٥هـ (١٢\ ٦٩).

[٧٨] شهاب الدين محمود الألوسي؛ روح المعاني، المحقق علي عبد الباري، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى؛ ١٤١٥هـ (٧\ ٢٧٢).

[٧٩] تفسير الماوردي (ج١ص٩٢).

[٨٠] أبو الفداء إسماعيل بن كثير؛ تفسير بن كثير، المحقق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية؛ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ (١\ ٢١٤).

[٨١] تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (ج١ص٣٨٤).

(ب) نشأة الغلاف الجوي:

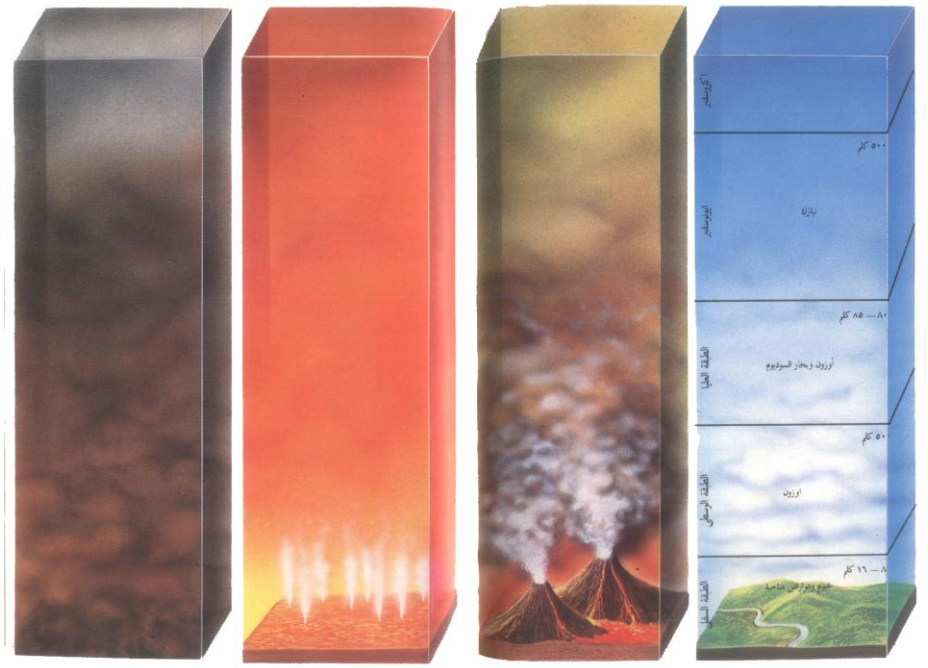

نشأ الغلاف الجوي من الدخان المُنبعث من البراكين العملاقة للأرض الأولية أثناء تكون غلافها الصخري (الموسوعة العالمية العربية المصورة مجلد١٨ ص٣٢٧٥).

البيان التصويري: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ٤١فصلت:٩-١٢؛ **يكشف تاريخ الأرض، والقصد مُباشرة بعد تكوين الأرض بغير السطح الصخري؛ إلى تشكيل السماء المحلية يعكس التقدير بقصد منذ البدء لتهيئة الظروف لنشأة الوعي في الأرض، ويعنى التهاب الأرض وإصدارها دخانًا نشأ منه الجو خلال نشأة السطح.**

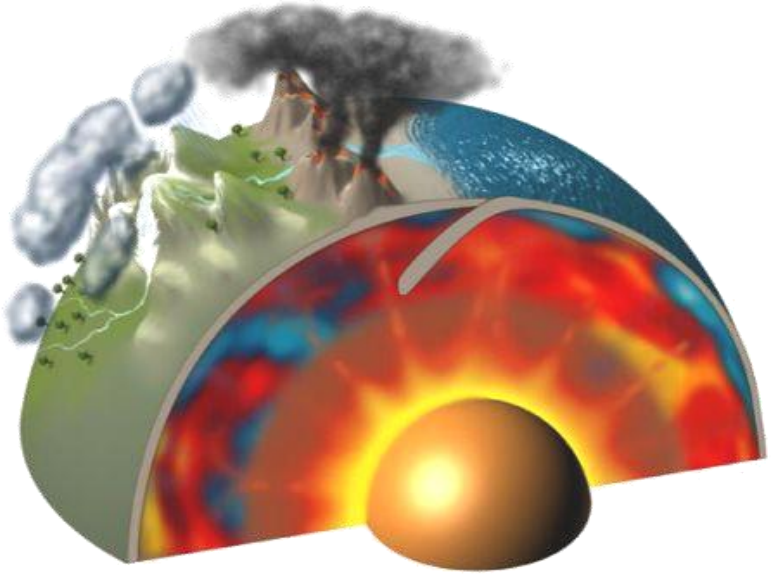

وقد ذهب الأعلام إلى أن السماء التي تشكلت طبقات بعد تشكيل الأرض ليست كل ما يعلُوها من الكون، وإنما جو الأرض كان دخانًا خرج منها عند تكونها فتشكل طبقات؛ يعني في آخر يومين من الأربعة، وجملة: (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ)؛ اعتراضية أفادت أن خلق الأرض قد تم في أربعة أيام من الستة أيام لخلق الكون، في نفس فترة تكوين طبقات الجو؛ الأرض إذن كانت نارية مُلتهبة، وما زال باطنها يمُور في دوامات حمم هائلة تحمينا منها قشرة رقيقة: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ٦٧الملك:١٦.

والنبأ يكشف أن السماء اللاحقة بالأرض والتابعة لها في الحركة كانت دخانًا؛ بعد نشأة كل الطبقات الداخلية للأرض، والقرينة: (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا)؛ وهو صريح في أن السطح الصخري قد تشكل بعد خلق الأرض الأولية، ويعني أنها كانت كتلة نارية مُلتهبة؛ بقرينة ما أصدرته من دخان كون السماء المحلية الأولية؛ قبل تشكلها إلى سماوات.

والإتيان لازمه الحركة؛ وهي تعود على الأرض والجو المحيط، والتعبير (ائْتِيَا) و(أَتَيْنَا) يعنى ملازمة الحركة أي معًا، وتوجيه الأمر لهما معًا يفيد عدم التلازم إلى أن صدر هذا الأمر؛ مما يتفق مع المعرفة حديثًا بتبدد الجو الأولي خلفها، ففي التمثيل أن هذا الدخان كان يتبدد ولا يرافق الأرض في سيرها حتى استقر وتحول لطبقات وأصبح كالسقف المحفوظ من التبدد وليس حافظًا فحسب؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ٢١الأنبياء:٣٢.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ١٧الإسراء:١٢: وجه التفسير بأن القمر كان جسمًا مُلتهبًا كالشمس أثناء تكوينه معها؛ يؤيد التهاب الأرض أثناء فترة تكوين الشمس والقمر، قال القرطبي: "(فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ).. لَمْ يَقُلْ: فَمَحَوْنَا اللَّيْلَ؛ فَلَمَّا أَضَافَ الْآيَةَ إِلَى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْآيَتَيْنِ المذكورتين لهما لا هما..، و(فَمَحَوْنا) مَعْنَاهُ طَمَسْنَا..، (أي أن) الْقَمَرِ.. كَانَ كَالشَّمْسِ..، (يعني) هُوَ يَوْمئِذٍ شَمْسٌ (عند تكوينه)؛ فَطَمَسَ ضَوْءَهُ وَبَقِيَ نُورُهُ..، (وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً) أَيْ جَعَلْنَا شَمْسَهُ مُضِيئَةً لِلْأَبْصَارِ"[٨٢]، وقال القنوجي: "(فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ) أي طمسنا نورها، وقد كان القمر كالشمس..، (وجعلنا آية النهار مبصرة) أي مبصراً فيها..، وقيل آية النهار الشمس، كما أن آية الليل القمر، فمعنى وجعلنا آية النهار مبصرة، أي جعلنا شمس النهار مُضيئة تُبصر بها الأشياء رؤية بينة"[٨٣]، وقال أحمد حطيبة: "{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} الإسراء:١٢، فالله جعل الليل آية؛ وجعل النهار آية، وجعل آية النهار الشمس ترونها؛ وجعل آية الليل القمر، قال: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} الإسراء:١٢؛ يعني محا من القمر نوره، وعلماء الفلك يقولون: كان القمر يومًا من الأيام مُشتعلاً مُتوهجاً كالشمس، قالوا ذلك الآن؛ وقالها قبلهم ابن عباس قبل ألف وأربعمائة سنة، قال ذلك مفسراً هذه الآية؛ يقول: كان القمر مُضيئاً كالشمس، فمحا الله عز وجل النور الذي كان فيه، قال الله: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}؛ بينة مُضيئة يراها كل ذي عينين"[٨٤].

---

[٨٢] أبو عبد الله محمد القرطبي؛ الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الثانية؛ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م (١٠\ ٢٢٧).

[٨٣] أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي؛ فتحُ البيان في مقاصد القرآن، راجعه عَبد الله الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة صَيدَا بَيروت؛ ١٤١٢ هـ-١٩٩٢م (٧\ ٣٦٢).

[٨٤] أحمد حطيبة؛ تفسير أحمد حطيبة، دروس مفرغة نشرها موقع الشبكة الإسلامية، ورقم الجزء هو رقم الدرس، والصفحات ترقيم موقع المكتبة الشاملة (١١١٩\ ٣).

وفي النبأ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ ٢البقرة:٢٩؛ تأكيد لتاريخ كوكب الأرض، وما كان يتبعه من سماء محلية أولية؛ تشكلت إلى طبقات بعد تشكل جميع طبقاته الداخلية، ويتضمن الدلالة على أن الطبقة السطحية المُتبقية ليكتمل كوكب الأرض؛ قد تشكلت في نفس فترة تشكيل طبقات الجو.

وفي بيان تاريخ الأرض والجو تمهيدًا لنشأة الإنسان وتأكيدًا لسبق التقدير وبالغ الاقتدار على البعث للحساب؛ يبلغ التمثيل الإخبار عن الأرض والسماء التي كانت دخانًا كأنهما عاقلين يستجيبا طائعين، تعريضًا بالمُكابرين عن البراهين، وفي التفسير الوسيط: "قوله تعالى: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا}.. تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما عن ذلك لا إثبات الطوع والكره لهما، وقيل..: {أَتَيْنَا طَائِعِينَ}.. إنما هذا كناية عن الطاعة والإذعان والامتثال؛ وهو الظاهر، وقال سبحانه: {طَائِعِينَ} بجمع المُذكر العاقل، ولم يقل: طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى..؛ وذلك من صفات من يعقل أجراهما مجرى العقلاء في التعبير عنهما، ومثله قوله تعالى..: {رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}؛ مع أن الضمير في {رَأَيْتُهُمْ} ضمير جماعة العقلاء، وقد عاد إلى الشمس والقمر والكواكب وهي غير عاقلة، {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} أي: ما تقدم من خلق الأرض.. وخلق السماء.. هو صنع العظيم القدرة الكامل العلم، وما أحسن هذه الخاتمة وهذا التذييل لتلك الآيات فهذه الأعمال العظيمة لا تحصل ولا تتم إلا بقدرة كاملة وعلم محيط"[٨٥].

(ج) طبقات الغلاف الجوي:

العدد	اسم النطاق أو الطبقة	الارتفاع (فوق مستوى سطح البحر)	الخصائص
١	الطبقة المناخية Troposphere (نطاق التغيرات الجوية)	من ٦ كم عند القطبين إلى ١٨ كم عند خط الاستواء.	يحوي ٨٥ % من كتلة الجو، ويقل الضغط بالارتفاع وكذلك درجة الحرارة لتبلغ ٦٠ درجة مئوية تحت الصفر عند قمته، ويختص بالرياح والسحب.
٢و٣	الطبقة فوق المناخية Stratosphere تتخللها طبقة الأوزون Ozone Layer	٥٠ كم، وتتخللها طبقة الأوزون على ارتفاع بين ٢٠ و٣٠ كم.	تقوم طبقة الأوزون بحجب نسبة كبيرة من الأشعة فوق البنفسجية الضارة، وينخفض الضغط الجوي حتى يصل إلى ٠.٠١ ضغط جوي عند قمة النطاق.
٤	النطاق المتوسط Mesosphere	٥٠ – ٨٥ كم	يشارك في الحماية من النيازك، ودرجة الحرارة أعلاه حوالي ٩٠ درجة مئوية تحت الصفر.
٥و٦	النطاق الحراري Thermosphere يتخلله نطاق التأين Ionosphere	يبلغ ارتفاع أكثر من ٥٠٠ كم، ونطاق التأين حوالي ٤٠٠ كم.	ترتفع أعلاه درجة الحرارة، وتحدث فيه ظاهرة الشفق القطبي، ودوره مهم في الاتصالات اللاسلكية لأنه يعكس موجات الراديو، ويعقبه النطاق الخارجي Exosphere الذي يصل لأكثر من ١٠٠٠ كم؛ لكن الهواء يكاد يكون منعدما لدرجة أن تنطلق ذرة غازية عند أسفله نحو ١٠ كم قبل أن تصطدم بذرة غازية أخرى؛ ويتزايد التخلخل إلى أن يتصل بالفضاء الخارجي (*).
٧	نطاق الغلاف المغناطيسي Magnetosphere	يمتد لحوالي ٥٠ ألف كم، وارتفاع الحزام الداخلي حوالي ٢٠٠٠ كم.	يقوم بدور الحماية من الرياح الشمسية الخطيرة.

(*) موسوعة ويكيبيديا العالمية والشبكة الدولية.

الطبقات الوظيفية للغلاف الجوي: أربع طبقات رئيسة يتخللها طبقتين فرعيتين؛ بالإضافة إلى الغلاف المغناطيسي.

في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ ٢البقرة:٢٩، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ ٤١فصلت:١١و١٢؛ تم تحويل الدخان إلى سبع طبقات، قال الألوسي: "معنى سواهن أتمهن"[٨٦]، وبالفعل تصنيف طبقات الجو سبع سماوات؛ يتفق مع التصنيف العلمي الحديث تبعًا للوظيفة التي تقوم بها كل طبقة.

---

[٨٥] مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر؛ التفسير الوسيط، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى؛ ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م (١٨ ٦٨٠).

[٨٦] أبو المعالي محمود شكري الألوسي؛ ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي لبنان، الطبعة الثانية؛ ١٣٩١هـ- ١٩٧١م (ص٢٤).

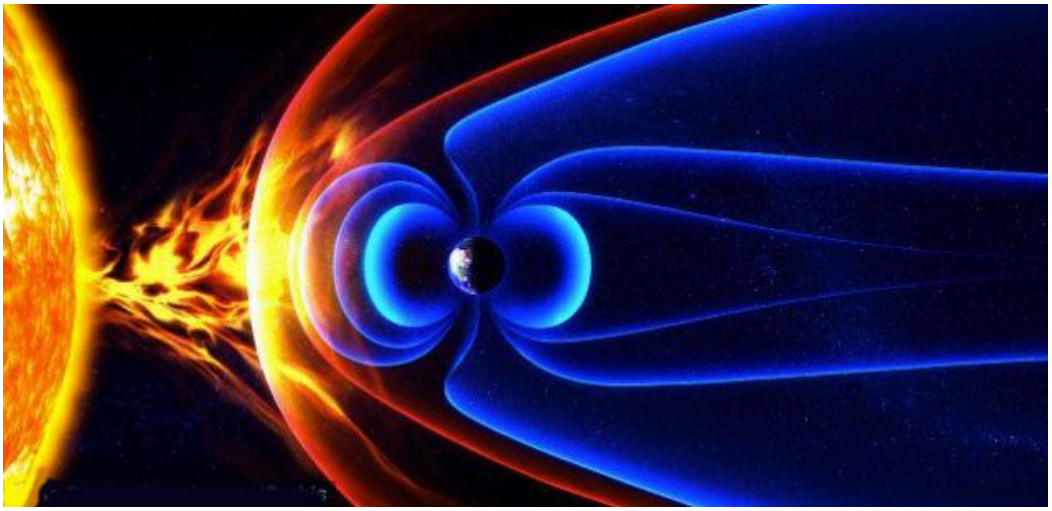

ينتظم الغلاف المغناطيسي في صفين كبار من القوى كالجنود مُعقبات من الأمام والخلف
يحفظون الإنسان على سطح الأرض ليل نهار من خطر الرياح الشمسية القاتلة بلا علم منه.

والنبأ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ٦٥الطلاق:١٢، أي: الله الذي خلق سبع سماوات عُلَى؛ وخلق من الأرض سبع سماوات مثلهن، فالأرض مخلوقة مع السماوات العُلى؛ وأتبعها ما خُلق منها: سبع سماوات، والضمير في: (مِثْلَهُنَّ)؛ عائد قطعًا على جمع مؤنث، وليس في النظم إلا: (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ)؛ وتُطابق آفاق الطبقات الكونية من تجمعات النجوم إلى آخر ما يُمكن مُشاهدته؛ فالمثلية لطبقية كيان في العلاء دونها؛ وليس إلا طبقات الغلاف الجوي، فالجو بالمثل طبقات أو سماوات يتميز كل منها بوظيفة نافعة للإنسان وكافة الأحياء على سطح الأرض، وتُزينه الشُّهب كالمصابيح، وتُسمى ظاهريا بخلاف الحقيقة بالنجوم الساقطة، وتُهدد برجم كل هارب خارج أسوار جاذبية الأرض، والشفق القُطبي مظهر خلاب كذلك في الغلاف الجوى؛ وهو في الحقيقة يعكس دور الغلاف المغناطيسي في دفع خطر الرياح الشمسية القاتلة عن الإنسان وكل كائن حي، وينتظم في صفين كبار؛ حشود جنود مُعقبات يحفظونه بلا علم منه.

يقول العلي القدير: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ٥٥الرحمن:٣٣، وباتساع دلالة لفظ السماوات؛ لتشمل طبقات الجو طبقًا لقرائن السياق؛ لم يعُد معنى النص مقصورًا على التعجيز عن بلوغ الإنسان فضاء الكون إذا امتلك التقنيات اللازمة وأمكنه التحكم والسيطرة بالتغلب على العقبات، والقرينة هي اقتران أقطار السماوات بأقطار الأرض على ضآلتها بجانب السماوات العُلَى؛ وأقطار الكرة الأرضية يعني جوانبها ونواحيها؛ والنفاذ يعني الولوج لمستوى أعلى خارج مستوى طبقات الجو، وشواظ النار الأشبه في دنيا العرب بلهب النحاس الذائب من شدة الحرارة هو أقرب مثال لمخاطر الشُّهب نتيجة الاحتكاك بالهواء عند محاولة النفاذ بغير استعداد كافي: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ ٥٥الرحمن:٣٥، وليس مُستبعدًا أن يكون للأرض أشباه لا تُحصى بالكون؛ مأهولة ومحجوبة ومُحاطة بطبقات جوية تلتهب فيها الشهب كذلك.

وهكذا تتكامل الأنباء المُتعلقة بالخلق؛ وكل الأحداث مُرتبة بنفس الترتيب الذي كشفه العلم حديثًا بعد عصر الوحي بأكثر من عشرة قرون، وما أجمله موضع فَصَّلَهُ آخر؛ مما يدفع أي احتمال أن يكون القرآن الكريم صناعةً بشرية.

(٥) مغزى النبأ

التلميح بأن الخليقة عن تصميم لا تصنعه صُدفة؛ وإنما خبير قدير يعلم بما خلق فأوحى به دليلاً يُنير سبيل الحائرين، والتلويح بإعادته تعالى ما قد صنع بغير سابق مثال؛ ليُتم نعمته على المُوقنين ويجازي المُعرضين عن البراهين.

وفي الأخير يرد السُّؤال: من أوجد الآخر؛ البيضة أم الكتكوت؟ لكنه لا يخدع فطين؛ فكليهما يصيح بكلام فصيح شاهدًا بتوجيه رشيد، وتكرُّر نفس التقدير في كل الطيور ينطق بوحدانية القدير، وأمام حيرة المخدوعين يقف كتكوت مُتحديًا مَن غفل عن قدرة العلي وزعم أنها الصدفة؛ لكنها لا تتكرر بانتظام، وهل يسأل فطين: أهي حنكة الثوب؛ أم حكمة الحائك!.

ولو أن أحدهم كتب كتابًا ثم طال به العمر ليكتب آخر؛ لاختلف طابع الكتابة، ويزيد الاختلاف باشتراك جملة مؤلفين، لكن القرآن يَتَّسِم دون كل ما يُنسب سواه للوحي بوحدة الطابع والتكامل بلا تعارض؛ رغم تنويع الأسلوب والأحداث الجسام وطول أمد التنزيل، وتؤكد تثنية النبأ مع الإصرار على المضمون في وصف خفايا التكوين؛ وحدانية العليم وحده تعالى بكل ما خلق، وللمُتأمل إذن أن ينهل من المضامين واثقًا من صدق النبأ؛ تقوده القرائن ووحدة الموضوع المُتنوع البيان المُتصل الوشائج، وفي النبأ: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ النازعات:٢٧-٣٣؛ فصول قصة الخليقة بترتيب لم يكن يعلم به زمن الوحي بشر، يقول العلي القدير: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ ١٨٥الأعراف:.

قُطُوف تَفْسِيرِيَّة

Interpretation picks

قال الماوردي: "{أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم}؛ {وأَغْطَشَ لَيْلَها وأَخْرَجَ ضُحاها} معناه أظلم ليلها..، وفي قوله: (وأخرج ضُحاها) وجهان؛ أحدهما: أضاء نهارها، وأضاف الليل والضحى إلى السماء؛ لأن منهما الظلمة والضياء، الثاني: قال ابن عباس أن أخرج ضحاها: الشمس، {والأرضَ بَعْد ذلك دَحاها}، في قوله (بَعْد) وجهان؛ أحدهما: مع؛ وتقدير الكلام: والأرض مع ذلك دحاها، لأنها مخلوقة قبل السماء؛ قاله ابن عباس ومجاهد، الثاني: أن (بعد) مستعملة على حقيقتها؛ لأنه خلق الأرض قبل السماء ثم دحاها بعد السماء؛ قاله ابن عمر وعكرمة، وفي (دحاها) ثلاثة أوجه؛ أحدها: بسطها؛ قاله ابن عباس..، قال عطاء: من مكة دحيت الأرض، وقال عبد الله بن عمر: من موضع الكعبة دحيت، الثاني: حرثها وشقها؛ قاله ابن زيد، الثالث: سوّاها..، إن قيل: كيف ذكر هاهنا أنه خلق ما في الأرض قبل السماء؛ وقد قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}؛ معلوم أن ما في الأرض محال وجوده قبل وجودها؟، قيل: قد ذكر في هذا جوابان؛ أحدهما: أنه تعالى خلق جوهر الأرض ثم دحاها وبسطها بعد خلق السماء، والثاني: أنه خلق السماء بعد خلق الأرض ووجودها، وإنما وقعت الشبهة من قوله: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}، لأن بعض الناس تصور له من جهة القرآن قوله: (بعد ذلك) ظرف لقوله: (دَحَاهَا)، واعتبر في (بعد) الزمان وليس كذلك، فإن تقدير الآية: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ}، ثم قال: {دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}؛ كقوله: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ} ثم قال: {بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا}، وليس "بناها" وصفاً للسماء؛ بل تقديره: (أم السماء أشد خلقاً)، ثم استؤنف فقيل: بناها؛ تنبيهاً أن من قدر على ذلك فهو على إعادتكم قادر، ثم قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ} أي الأرض بعد السماء أشد خلقاً من إعادة خلقكم، وذلك لأن السماء بما فيها من عجائب الصنعة أعظم خلقاً من الأرض، ثم الأرض أعظم من الإنسان، وليس يُريد بقوله بعد التوقيت؛ وإنما يريد الترتيب في الشرف والرفعة، فإن قيل: ولم نَصَبَ الأرض ولم يرفعها كما رفع السماء؟ قيل: لأن القول استخبار، وقوله: "والأرض" ليس بداخل في الاستخبار، لأنه لو كان استخباراً لقال: أم الأرض، لكنه استأنفه، فأضمر له فعلاً نحو: {يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ}، ذلك الفعل ما دل عليه (أنتم أشد) من التعرف، وقوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} فالاستواء وإن كان في الأصل للإقبال الدال على الانتقال، فقد يُراد به التوفر على إصلاح الشيء؛ وهو المُراد هاهنا، وعلى ذلك الإتيان في نحو قوله: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}، ويكون اللفظ متجوزاً به هاهنا، قال بعضهم: معناه: استولى، وقال الحسن: أقبل على خلقه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: استوي أمره عليه، وقيل معنى: (سَوَّاهُنَّ) أي تحرى السواء، أي العدالة وذلك لما جعل فيها من التركيب المتعادل المشار إليه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "بالعدل قامت السماوات"، إن قيل: لم ذكر السماء ثم قال: (فَسَوَاهُنَّ)؟؛ قيل: لما عنى بالسماء السموات؛ رد الضمير إلى المعنى، ومجاز ذلك أن الأسماء على ضربين: اسم موضوع لأجزاء الرجل والمرأة متشابهة، نحو: الدم واللحم والماء والأرض، واسم موضوع لأجزاء غير متشابهة، نحو: اليد والرجل، فما كان من الأول؛ فإنه يقع على بعضه اسم كله، فلا فرق بين أن يذكر بلفظ واحد أو بلفظ الجمع، والسماء من هذا الباب، لأنه يقال لأقطاع اللحم: لحم، ولكل قطعة منها منفصلة كانت أو متصلة: لحم، كذلك السماء"[٨٧].

[٨٧] الماوردي؛ النكت والعيون، تحقيق السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت (١٩٨١٦).

وفي تفسير مجمع البحوث: "(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ)؛ المفردات: (رَفَعَ سَمْكَهَا) السَّمْكُ: العلو والارتفاع، يُقال: سَمَكْتُ الشيءَ: رفعتُه في السماءِ، وبناءٌ مَسْموكٌ: عال مرتفع، (فَسَوَّاهَا): جعلها ملساءَ مستوية،(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا): أي: أظلمه، يقال: غطش اللَّيل من باب ضرب، وأغطش: صار مظلما وأظلمه الله، (دَحَاهَا): بسطها ومدَّها من الدحو أو الدحي يعني البسط، التفسير: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا): الاستفهام للتقريع والتوبيخ لأهل مكة المنكرين للبعث بناءً على صعوبته في زعمهم، أي: أَخَلْقُكُمْ بعد موتكم أشق وأصعب أم خلق السماءِ على عظمها؛ وانطوائها على الأعاجيب والبدائع التي يحار العقل في إدراك كنهها؟! (بَنَاهَا): ضم أجزائها المتفرقة بعضها لبعض بعد أن خلقها بقدرته مع ربطها بما يمسكها حتى تكون بنية واحدة، وهكذا صنع سبحانه بالكواكب، ووضع كلا على نسبة من الآخر مع ما يمسكه في مداره؛ (فكان) منها عالم واحد في النظر سمى باسم واحد؛ وهو السماء التي تعلونا..، (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) بيان للبناءِ، أي: رفع جرمها وأعلى قبتها وجعل مقدار ارتفاعها من الأرض وذهابها إلى جهة العلو مديدًا رفيعًا، قال ابن كثير: أي: جعلها عالية البناء بعيدة الفناء مستوية الأرجاء؛ مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء، (فَسَوَّاهَا) بوضع كل جرم في موضعه حسبما اقتضته الحكمة، وقيل: فسواها بجعلها ملساء مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا): أي جعل الله ليلها مظلمًا؛ لأنه يُقال: أغطش الليل كما يُقال: أظلم، ونسبة الليل إلى السماء لأنه يكون بمغيب كوكبها وهو الشمس، (وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) أي: وأبرز نهارها، والضحى في الأصل على ما يُفهم من كلام الراغب: انبساط الشمس وامتداد النهار، ثم سمي به الوقت المعروف، وشاع في ذلك وتجوز به عن النهار بقرينة المُقابلة بالليل..، وإضافة الضحى إلى السماء لأنه يحدث بسبب طلوع الشمس، (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا): أي: بعد تسوية السماء.. وإغطاش اللَّيل وإخراج النهار، (دَحَاهَا) أي: بسطها ومهدها لسكنى أهلها وتقلبهم في أقطارها..، وقيل: دحاها: سواها، والأكثرون على الأول، والظاهر أن دحوها بعد خلقها، وقيل: معه؛ أي: خلقها مدحوة، وروى الأول عن ابن عباس، ولعل المُراد من خلقها أولا ثم دحوها ثانيًا؛ خلق مادتها أولا ثم تركيبها وإظهارها على هذه الصورة والشكل مدحوة مبسوطة، كما قيل في قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) إلى قوله: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)، أي أن السماءَ خلقت مادتها أولا ثم سويت وأظهرت على صورتها اليوم، (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا): أي: أخرج سبحانه من الأرض الماء وذلك بتفجير الينابيع والعيون وإجراء الأنهار، كما أخرج منها المرعى؛ ويقع على الرَّعْي وهو الكلأ، أو المُراد به كل ما يرعى المرعيّ مما يأكله الناس والأنعام، وتجريد الجملة عن العاطف لأنها بيان وتفسير لدَحَاهَا وتكملة له، فإن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط والتمهيد، بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب، (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا): أي أثبت الله الجبال في مكانها وجعلها وقاية للأرض أن تميد بأهلها، والتعبير عنها بالرواسي في كثير من آيات التنزيل ليس لأن الرسو المنسوب إليها من مقتضيات ذواتها؛ بل هو بإرسائه عز وجل، ولولاه لما ثبتت في أنفسها فضلا عن إثباتها للأرض، (مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ): أي فعل سبحانه ذلك كله ليتمتع به الناس والأنعام، حيث إن فائدة البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى واصلة إليهم وعائدة عليهم وعلى أنعامهم، وحاصل المعنى: أفلا يكون خالقكم وواهبكم ما به تَحْيَوْن، ورافع السماءِ فوقكم وباسط الأرض تحتكم قادرًا على بعثكم!"[٨٨].

[٨٨] مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر؛ التفسير الوسيط، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى؛ ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م (١١٠ ١٧٧٢).

وقال القاسمي: "(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ) خطاب للمكذّبين بالبعث من قريش.. بطريق التبكيت لتنبيههم على سهولته في جانب القدرة الربانية، فإن من رفع السماء على عظمها؛ هيّن عليه خلقهم وخلق أمثالهم، وإحياؤهم بعد مماتهم، كما قال سبحانه: (لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) غافر:٥٧، وقوله تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) يس:٨١، ثم بيّن كيفية خلقها بقوله: (بَناها) قال ابن جرير: أي رفعها فجعلها للأرض سقفا، وقال الإمام: البناء ضم الأجزاء المتفرّقة بعضها إلى بعض، مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة، وهكذا صنع الله بالكواكب، وضع كلّا منها على نسبة من الآخر، مع ما يُمسك كلّا في مداره، حتى كان عنها عالم واحد في النظر، سمي باسم واحد وهو السماء التي تعلونا، وهو معنى قوله: (رَفَعَ سَمْكَها) أي أعلاه، و(السمك) قامة كل شيء، وقد رفع تعالى أجرامها فوق رؤوسنا، (فَسَوَّاها) عدلها بوضع كل جرم في موضعه، (وَأَغْطَشَ لَيْلَها) أي جعله مظلما، قال ابن جرير: أضاف الليل إلى السماء، لأن الليل غروب الشمس، وغروبها وطلوعها فيها، فأضيف إليها لما كان فيها..، (وَأَخْرَجَ ضُحاها) أي أبرز نهارها، و(الضحى) انبساط الشمس وامتداد النهار، وإيثار الضحى لأنه وقت قيام سلطان الشمس وكمال إشراقها، (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ) أي بعد تسوية السماء.. وإبراز الأضواء، (دَحاها) أي بسطها ومهدها لسكنى أهلها، وتقلبهم في أقطارها، (أَخْرَجَ مِنْها ماءَها) أي بأن فجر منها عيونا وأجرى أنهارا، (وَمَرْعاها) أي رعيها وهو النبات، قال الشهاب: والمرعى ما يأكله الحيوان غير الإنسان، فأريد به هنا مجازا مطلق المأكول للإنسان وغيره..، (وَالْجِبالَ أَرْساها) أي أثبتها فيها، (مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ) أي انتفاعًا إلى حين، قال أبو السعود: ونصبه إما على أنه مفعول له، أي فعل ذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم، لأن فائدة ما ذكر من البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى؛ واصلة إليهم وإلى أنعامهم، فإن المراد بالمرعى ما يعم ما يأكله الإنسان وغيره..، وإما مصدر مؤكد لفعله المضمر؛ أي متعكم بذلك متاعا، أو مصدر من غير لفظه، فإن قوله تعالى: (أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها) في معنى متع بذلك"[٨٩].

وقال ابن عاشور: "و(السَّماءُ) يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجِنْسُ وَتَعْرِيفُهُ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، أَيِ السَّمَاوَاتُ..، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ سَمَاءٌ مُعَيَّنَةٌ.. وَهِيَ الْكُرَةُ الْفَضَائِيَّةُ الْمُحِيطَةُ بِالْأَرْضِ وَيَبْدُو فِيهَا ضَوْءُ النَّهَارِ وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ..، (بَناها).. الْبِنَاءُ: جَعْلُ بَيْتٍ أَوْ دَارٍ مِنْ حِجَارَةٍ، أَوْ آجُرٍّ أَوْ أَدَمٍ، أَوْ أَثْوَابٍ مِنْ نَسِيجِ الشَّعْرِ، مَشْدُودَةٌ شُقَقُهُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِغَزْلٍ أَوْ خِيَاطَةٍ وَمُقَامَةٌ عَلَى دَعَائِمَ، فَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ بِأَدَمٍ يُسَمَّى قُبَّةً، وَمَا كَانَ بِأَثْوَابٍ يُسَمَّى خَيْمَةً وَخِبَاءً، وَبِنَاءُ السَّمَاءِ: خَلْقُهَا، اسْتُعِيرَ لَهُ فِعْلُ الْبِنَاءِ لِمُشَابَهَتِهَا الْبُيُوتَ.. وَجُمْلَةُ (رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها) مُبَيِّنَةٌ لِجُمْلَةِ بَناها..، وَسُلِكَ طَرِيقُ الْإِجْمَالِ ثُمَّ التَّفْصِيلِ لِزِيَادَةِ التَّصْوِيرِ.. تَعْدِيَةُ فِعْلِ رَفَعَ إِلَى السَّمْكِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الرَّفْعِ..، (فَسَوَّاها).. أَتْقَنَ صُنْعَهَا..، وَهَذِهِ الْآيَةُ أَظْهَرُ فِي الدِّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ بَعْدَ السَّمَاوَاتِ؛ وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَمُقَاتِلٍ وَالسُّدِّيِّ، وَهُوَ الَّذِي تُؤَيِّدُهُ أَدِلَّةُ عِلْمِ الْهَيْئَةِ..، وَجُمْلَةُ (أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها) بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ جُمْلَةِ (دَحاها)؛ لِأَنَّ الْمَقْصِدَ مِنْ دَحْوِهَا بِمُقْتَضَى مَا يُكَمِّلُ تَيْسِيرَ الِانْتِفَاعِ بِهَا..، وَالرَّعْيُ: حَقِيقَتُهُ تَنَاوُلُ الْمَاشِيَةِ الْكَلَأَ وَالْحَشِيشَ..، فَالِاقْتِصَارُ عَلَى الْمَرْعَى اكْتِفَاءٌ عَنْ ذِكْرِ مَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ مِنَ الثِّمَارِ وَالْحُبُوبِ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الْمَرْعَى يَدُلُّ عَلَى لُطْفِ اللَّهِ بِالْعَجْمَاوَاتِ، فَيُعْرَفُ مِنْهُ أَنَّ اللُّطْفَ بِالْإِنْسَانِ أَحْرَى؛ بِدِلَالَةِ فَحْوَى الْخِطَابِ، وَالْقَرِينَةُ عَلَى الِاكْتِفَاءِ قَوْلُهُ بَعْدَهُ (مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ) النازعات:٣٣..، وَقَدْ دَلَّ بِذِكْرِ الْمَاءِ وَالْمَرْعَى عَلَى جَمِيعِ مَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ قُوتًا لِلنَّاسِ وَلِلْحَيَوَانِ حَتَّى مَا تُعَالَجُ بِهِ الْأَطْعِمَةُ مِنْ حَطَبٍ لِلطَّبْخِ فَإِنَّهُ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ..، وَإِثْبَاتُ الْجِبَالِ: هُوَ رُسُوخُهَا بِتَغَلْغُلِ صُخُورِهَا.. إِلَى بَاطِنِ الْأَرْضِ"[٩٠].

[٨٩] محمد جمال الدين القاسمي؛ محاسن التأويل، المحقق محمد باسل عيون السود؛ دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى؛ ١٤١٨هـ (١٩ ٤٠١).

[٩٠] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١٣٠ ٨٣).

Scientific Field الحَقْل العِلْمِي

Astronomy

فلك

Subject المَوْضُوع

Creation of the universe

خلق الكون

Related Texts نُصُوص مُتَعَلِّقَة

- ﴿أَأَنتُمْ أَشَدّ خَلْقاً أَمِ السمّآءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعاً لّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ ٧٩النازعات:٢٧-٣٣.
- ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ ٥٧الحديد:٢٥.
- ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ ٩١الشمس:٥و٦.
- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ٣٣الأحزاب:٧٢.
- ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السمّآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ٨٨الغاشية:١٧-٢٠.
- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ٦٥الطلاق:١٢.
- ﴿تَنزِيلاً مّمّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسّمَاوَاتِ الْعُلَى .الرّحْمَـنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىَ. لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثّرَىَ﴾ ٢٠طه:٤-٦.
- ﴿إِنّا زَيّنّا السّمَآءَ الدّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ ٣٧الصافات:٦.
- ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ٤١فصلت:٩-١٢.
- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ. وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ ٦٧الملك:٣-٥.
- ﴿إِنّ عِدّةَ الشّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ ٩التوبة:٣٦.
- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ٢٢الحج:٤٧.
- ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ٣٢السجدة:٥.
- ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ. مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا. إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا. وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ ٧٠المعارج:١-٧.
- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ. وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ٢١الأنبياء:٣٠-٣٢.
- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٢البقرة:١٦٤.
- ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٤٥الجاثية:٣-٥.
- ﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرّ وَمَتَاعٌ إِلَىَ حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ٧الأعراف:٢٤و٢٥.

- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٢البقرة:٢٩.
- ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ٢٦الشعراء:٢٤.
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ١٥الحجر:٨٥.
- ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ١٩مريم:٦٥.
- ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ ٢٥الفرقان:٥٩.
- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ٣٠الروم:٨.
- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ٣٢السجدة:٤.
- ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ ٣٧الصافات:٥.
- ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ ٣٨ص:١٠.
- ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ٣٨ص:٦٦.
- ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٤٣الزخرف:٨٥.
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ٤٤الدخان:٣٨.
- ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ٤٤الدخان:٧.
- ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ ٤٦الأحقاف:٣.
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ٥٠ق:٣٨.
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٥المائدة:١٧.
- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ٥المائدة:١٨.
- ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ٧٨النبأ:٣٧.
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ٢١الأنبياء:١٦.
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ٣٨ص:٢٧.
- ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ٢٦الشعراء:٢٨.